الباب الثَّاني

آداب الحوار :

- فَنُّ الأسئلةِ .
- تحديدُ الشَّخصيَّةِ .
- تقويمُ اللِّسانِ .
- البَيَانُ .
- الأمثِلَةُ .
- لِكُلِّ مقامٍ مَقَالٌ .
- الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ .
- حَاوِرْهُ باسْمِهِ .
- لا تَسْتَخْدِمْ لَفْظَةَ « أنَا » .
- حُسْنُ الاستماع .
- الحِوارُ الصَّامتُ .
- مُحَاوَرَةُ الصِّغَارِ .
- لا تُحاوِرْ هؤلاءِ .
- المُعارَضَةُ .
- فُضُولُ الحِوارِ .

obeikandl.com

obeikandl.com

فَنُّ الأسئلَةِ

الأَسْئلَةُ هي وسيلتنا للتَّعارُف عَلَى الطَّرَف الآخر ، ومَنْزِلَته وعلْمه ، ومستواهُ العلْميِّ والجدليِّ ؛ حتَّى نعرفَ حالَهُ فَنَسْتَعدّ له ، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يسألُ عن أصْلِ شخصٍ غريبٍ ، أو وَفْدٍ [١] غريبٍ عند التقائه بهم ؛ كي يتمكَّنَ من التَّعارُف عَلَى مَنْ قَدِمَ عليه ، أو التقى هو ﷺ بهم ، فينزلهم منازلهم ، ويتحاور معهم مُراعيًا أحوالهم ، ومن ذلك - على سبيل المثال - :

(أ) سؤاله ﷺ رجلاً من هَمْدان [٢] عَنْ أصْلِه :

عن جابرٍ رضي الله عنه قال : كانَ النَّبيُّ ﷺ يعرضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاس بالموقف [٣] فيقول : « هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إلى قومه ؛ فإنَّ قُريشًا قَدْ منعوني أنْ أُبَلِّغَ رسالةَ ربِّي عزَّ وجلَّ ؟ » ، فأتاهُ رجلٌ مِنْ هَمْدان ، فقال : « ممَّنْ أنتَ ؟ » ، فقال الرَّجُلُ : « مِنْ هَمْدان» ، فقال : « هل عِنْدَ قَومكَ مِنْ منعة ؟ » قال : « نَعَمْ » ثُمَّ إنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أنْ يَحْقِرَهُ قومُهُ ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : آتيهم فأُخبرهم ، ثمَّ آتيك من عامٍ قابلٍ . قال : « نَعَمْ » ، فانطلقَ وجاءَ وَفْدُ الأنصارِ في رَجَبٍ [٤] .

(ب) سؤاله ﷺ نَفَرًا من الخَزْرَج عند عَقَبة المنى عن أصلهم :

لَقِيَ النَّبيُّ ﷺ نَفَرًا من الخَزْرَجِ عِنْدَ عَقَبَةِ المِنَى في موسمِ الحجِّ ، فسألهم عن أصلهم - أيضًا - قبل دعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) **الوَفْدُ** : الجماعة .

(٢) **هَمْدان - بفتح الهاء ، وسكون الميم -** : قبيلة باليمن ، «بلوغ الأماني» (٢/ ٢٦٧) .

(٣) **الموقف** : أي موقف النَّاس بعَرَفات في موسم الحَجِّ . المرجع السَّابق (٢٠/ ٢٦٧) .

(٤) أخرجه أحمد (٣٤/ ١٣٤-٢٠) ، والحاكم (٢/ ٦١٢-٦١٣) ، وقال عنه : صحيحٌ على شرطِ الشَّيخين، ولم يخرجاه ، ووافقه الذَّهبيُّ . انظر « التَّلخيص » (٢/ ٦١٣) .

رَوَى الإمامُ ابن إسحاق أنَّه لَمَّا لَقِيَهُمْ (نفرًا من الخَزْرَج) رسولُ الله ﷺ قال لهم : « مَنْ أنتُمْ ؟ » ، قالوا : نَفَرٌ من الخَزْرَج ، قال : « أَمِنْ مَوَالي يَهُود ؟ » قالوا : نعمْ . قال : « أفَلا تجلسونَ أُكَلِّمْكُمْ ؟ » قالوا : « بَلَى » فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعَرَضَ عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآنَ (١) .

(جـ) سؤاله ﷺ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ عن أصلهم :

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عليه ﷺ ، فسألهم بقوله : « مَنِ القَوْمُ ؟ » أو « مَنِ الوَفْدُ ؟ » ، قالوا : « رَبِيعَةُ » ، قال : « مَرْحبًا بالقَوْمِ – أو بالوَفْدِ – غَيْرَ خَزَايَا (٢) ، ولا نَدَامَى (٣) » الحديث (٤) .

قال ابن حَجَرٍ : قال ابن أبي جمرةَ : في قوله : « مَنِ القَوْمُ ؟ » دليلٌ علَى استحباب سؤال القاصد عن نفسه ؛ ليُعْرَفَ فَيُنْزَلَ مَنْزِلَتَهُ » (٥) .

والأسئلة فَنٌّ ، فلابُدَّ أن يكون المُحاور ماهرًا في صياغة السُّؤال ، والتَّعليق عليه بصورةٍ أو بأُخرى ؛ لأنَّه يجب أن يسأل ، ويستوضحَ قبل أنْ يُصْدِرَ حُكْمًا أو يرفُضَ رأيًا ، فالعلم سؤالٌ وجوابٌ ، ومن ثَمَّ قيل : « حُسْنُ السُّؤالِ نِصْفُ العِلْمِ » (٦) .

---

(١) سيرة ابن هشام (...) ، وحسَّنه الألبانيُّ ، انظر تعليقه على فقه السِّيرة للغزاليِّ هامش (...) ، وحسَّنه – أيضًا – الدكتور العمري ، والأستاذان شعيبٌ وعبد القادر الأرناؤوط ، انظر هامش زاد المعاد (...) .

(٢) خَزَايا : جمع خازٍ . والمعنى : أنَّهم أسلموا طَوْعًا من غَيْرِ حَرْبٍ أو سَبْيٍ يُخْزيهم ويَفْضَحُهُم . الفتح (...) .

(٣) نَدَامَى : جمع نديمان ، أي المنادم في اللَّهو . المرجع السَّابق (...) .

(٤) أخرجه البخاري (...) ، ومسلم (...) .

(٥) « الفتح » (...) .

(٦) المرجع السَّابق (...) .

قال القحطانيُّ - رحمه الله - :

أَصْلُ الجـدالِ منَ السُّؤَالِ ، وفَـرْعُهُ حُـسْنُ الجـوابِ بأَحْـسَنِ التِّـبيـانِ
لا تَلْتَـفِتْ عِنْدَ السُّؤَالِ ، ولا تُعِـدْ لَفْظَ السُّـؤَالِ كلاهمـا عَـيْبـانِ (١)

ويُمكن تقسيم الأسئلة إلى ثلاثة أقسام :

[١] الأسئلة المفتوحة :

وهي التي تَسْمَحُ للآخر بالإجـابة عن السُّؤال بطريقةٍ غير مـحدَّدة ، مثل : أنْ تقولَ لمحاورك : الأخُ مِنْ أينَ ؟ ما اسـمُكَ ؟ ، كيفَ حَالُكَ ؟ ، أيْنَ طَلَبْتَ العِلْمَ ؟ ، كيف أنتَ والقراءَةَ ؟ ، إلى غير ذلك ، وأنت تُعَلِّق بقولك : ما شاءَ اللهُ ، نَعَمْ ، زِدْني ، حَدِّثْني عَنْ هَذَا الكتاب ، أو تُعَلِّق عَلَى جُزئيَّة من حديثه ، سواء بالإيماء ، أو الهَـمْهَمَـاتِ ، وتعبيـرات الوَجْهِ ، ممَّا يضطرُّهُ إلى التَّـوضيحِ أكثر ، ويبدأ تبادل الحوار والأُلفة والمحبَّة بينكما ، وهذا له دورٌ عظيمٌ في اكتشاف شخصـيَّة مُحاورك ، وكذا تحقيق الانسجام بصورةٍ طبيـعيَّةٍ وتلقائيَّةٍ ، كـما أنَّها وسيـلةٌ لكسبِ الثِّقَـةِ ، وكسْبُ الثِّـقَة يُولِّدُ بالتَّـالي المودَّة والمحبَّـة في القلوب ، ناهيكَ عن تنشيط عمليَّـة التَّحاور ، وإثارة تفكير الآخر ، ومعـرفة الطَّريقة التي يُفكِّرُ بها ، واختبار صحَّة بعض المعلومات .

[٢] الأسئلة الموجَّهة :

وهي التي تُقَيِّدُ الآخر بوضع الإجـابة في إطارٍ محدود ، مثل : أنْ تسألَ : ما دليلُكَ عَلَى ما ذهبتَ إليه ؟ ، هَلْ سَبَقَكَ بهذا القول إمامٌ ؟ ، أينَ مَظَانُّ هَذَا القول ، أو هذه الفائدة ؟ .

---

(١) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

[٣] الأسئلة التَّقريريَّة :

وهي التي تستدرجُ الطَّـرفَ الآخر إلى الإقرار بقوله ، وتجعل جـوابه إيجابياً نافعًـا ، والإقرارُ يتميَّـزُ بسيطرة السَّائل على الأسـئلة والأجوبة معًـا ، وبطريقة تُمكِّنه من الوصولِ إلى أهدافِه من أقْرَبِ طريقٍ .

والأسئلة التقريرية قد جاءت في مواضعَ عدةٍ من كتاب الله ، فعلى سبيل المثال :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لُقمان : ٢٥] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزُّخرُف : ٩] .

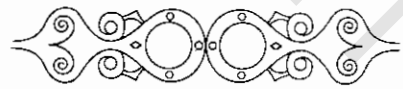

تحديد الشَّخصيَّة

ترجع نسبةٌ كبيرةٌ من الحوارات الفاشلة إلى عدم معرفة المحاور للطرف المقابلِ لهُ معرفةً دقيقةً ؛ لأنَّ الجهلَ يُؤدِّي إلى سوءِ الفَهْمِ بكُلِّ تأثيراته السَّلبيَّة التي تصل إلى حدِّ الانشقاقِ والفُرقة ، ومن هنا كانت المعرفة الدَّقيقة لشخصيَّة الآخر ، وظروفه ، وبيئته ، واهتماماته ، ومُبرِّراته في التَّمسُّك بما يقول ، كُلُّ ذلك هو الطَّريق إلى تحديد الأسلوب المُناسب للتَّحاور معه ، والمفتاح الصَّحيح لفتح قلبه ، والقرب منه وضبط أعصابه .

وتُعَرَّفُ الشخصيَّة بأنَّها : الصِّفات المُعَيَّنة التي يتَّصِفُ بها إنسانٌ ما دون غيره .

ويُمكنُ تقسيم الشَّخصيَّة التي نتعامل معها إلى أربعة أقسام:

[١] الشخصيَّة اليائسة :

وهي شخصيَّة مَنْ تَعرَّضوا للفشلِ المستمرِّ على طريق الدَّعوَة إلى الله ، أو على طريقٍ آخر ، وأسلمهم هذا الفشلُ إلى يأسٍ مُطْلَقٍ من أيِّ عملٍ ، وهؤلاءِ لا يتصوَّرون عملاً يمكنه الوصول إلى التغيير للأفضل ، بل ويكرهون من يُحاول القيام بأيِّ مُحاولةٍ إيجابيَّةٍ للتَّغيير ، ويجدون مُتْعَتهم الحقيقيَّة في رَصْدِ تجارِبِ الفَشَل .

ولا شَكَّ أنَّ الحوار مع هؤلاء يتطلَّب الحذر الشَّديد ؛ حتَّى لا يضيع وقتُ الحوار فيما لا ينفعُ ، أو يدورُ الحوار في حلقةٍ مفرغةٍ دون الوصول إلى أهدافٍ محدودةٍ يُبْنَى عليها الحوار .

ومن هنا وَجَبَ على من يتحاور مع هذا الصِّنف عدمُ الخوض في الأمورِ التي سَبَّبت لهؤلاء الفشَلَ ؛ لأنَّ هذه الأمور تستثير شَهِيَّتهم لترسيخ اليأس ، وإنَّما يكون التَّركيزُ في الحوارِ على ترسيخ اليقين بأنَّ هناك ما يُمكن عمله ، وأنّ

كُلَّ عملٍ مُفيدٌ .

[٢] الشَّخصيَّة المُصَنِّفة :

وهي الشَّخصيَّة التي تميلُ - دائمًا - إلى تصنيفِ الآخر وتأخيره بجهالةٍ دونَ تروٍّ ، بل وتَعْتَبِرُ الآخر عندَ أدْنى مُخالفةٍ من معسكر الخُصُومِ الذين يجب التَّصارع معهم وسحقهم .

ولا شكَّ أنَّ التَّحاور مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّة يتطلَّبُ قَدْرًا كبيرًا من الذَّكاء والحذر ، ويقتضي إبراز أكبر قَدْرٍ ممكن من مواطن الاتِّفاق بين الطَّرفين في بداية التَّحاورِ ؛ لأنَّ ذلك يُقَلِّلُ فجوةَ الخلاف ، ثُمَّ استثمار الفرص للتأكيد على خطإِ تصنيفهم عبر رسالةٍ أَخَوِيَّةٍ تُثبتُ حُسْنَ النِّيَّة والحُبَّ للآخر ؛ لأنَّ ذلك يُقلل الكراهية .

فإذا ضاقتْ فَجْوَةُ الخلاف ، وانحسَرَتْ حِدَّةُ الكراهية من الآخر ، فلابُدَّ من الالتزام خلال الحوار بترك الفرصَة الدَّائِمَة للمخالف يرجعُ عَنْ أفكاره مع حِفظِ ماء الوجْه .

إنَّ مَنْ نحاوره ونُخالفه في الرَّأي بطريقة صحيحةٍ للحوارِ والخلاف ، لا يَشْعُرُ بالانهزامِ والإرغامِ ، بل يشعر بفضيلة انكشاف الحقِّ ، والرضوخ له دون إرغامٍ من أحدٍ ، والحوار النَّاجح هو الحوارُ الَّذي لا يَشْعُرُ فيه المتراجعُ عن الخطإِ بالذُّلِّ كما لا يشعر فيه الدَّاعي إلى الحقِّ بالغرور .

[٣] الشَّخصيَّة المُتَصَيِّدَة :

وهي التي يقومُ صاحبها بتصيُّد الحروف والألفاظ، دون الاهتمام بمقاصدها، أو إحسان الظَّنِّ بقائلها ، وهذه الشَّخْصيَّة - وليس لنا مَثَلُ السَّوْءِ - كشخصيَّةِ الخنزير ، أو الذُّباب .

قال ابن القيم - رحمه الله - : « ومِنَ النَّاسِ مَنْ طَبْعُهُ طَبْعُ خنزيرٍ ، يَمُرُّ بالطَّيِّبات فلا يَلْوي عليها ، فإذا قام الإنسانُ عن رَجيعِه قَمَّهُ ، وهكذا كثيرٌ من النَّاسِ ،يسْمَعُ منك ويرى من المحاسن أضْعَافَ المساوئ ، فلا يَحْفَظُها ، ولا يَنْقُلُها، ولا تُناسبُهُ، فإذا رأى سَقْطَةً ، أو كلمَةً عَوْراءَ، وَجَدَ بُغْيَتَهُ وما يُناسبها، فجعلها فاكِهَتَهُ ونُقْلَهُ » [١] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « إنَّ الجاهلَ بمنزلة الذُّباب ، لا يقعُ إلاَّ عَلَى العقير (أي الجريح) » [٢] .

قال عبد الكريم العماد :

لا تَكُنْ كـالذُّبابِ يَتْـرُكُ مَـا طَا ... بَ ، ويَلْوي عَلَـى الأَذَى والقُـرُوحِ
وتَنَـزَّهْ كَنَحْلَـةِ الرَّوْضِ فَـوْقَ الزَّ ... هْرِ ، تَبْـغي الرَّحيـقَ بَيْنَ السُّفُـوحِ

ولاشكَّ أنَّ التَّحاورَ مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّات يحتاجُ إلى التَّذكير الدَّائم بأنَّه ليس أحدٌ من العلماء إلاَّ وله نادرةٌ ينبغي أنْ تُغمَرَ في جنب فَضْلِه وتُجْتَنَب [٣] ، ولابُدَّ من التَّخلُّقِ بأدبِ الاعتراف بالخطإ إنْ وَقَعَ منَّا ، وعدم الدِّفاع عن الأخطاء أو تبريرها ؛ لأنَّ ذلك هو السَّبيلُ لإقامة جسورِ التَّواصُلِ مع أصحابِ الشَّخصيَّةِ المُتَصيِّدَة .

وهنا نقطة مهمة في هذا الباب :

هي أنَّهُ ليس كُلُّ مَنْ يَغْلِبُ عليه النَّقْدُ صاحبَ شَخْصيَّةٍ مُتَصيِّدَة ؛ فالنَّقْدُ - في الوقت ذاته - يُعْتَبرُ ضرورةً مُلِحَّةً لا يُسْتَغْنَى عنها ، خاصَّة إذا كان مبنيّاً علَى تمام العدلِ والإنصافِ والتَّجرُّدِ ، وهو من باب النَّصيحَةِ والتَّواصي بالحقِّ

---

[١] « مدارج السَّالكين » .
[٢] « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » .
[٣] « الموافقات » .

المأمور بهما شرعًا .

وما أجمل ما قاله الإمام الربانيُ ابنُ القيم - رحمه الله - :

« عادتنا في مسائل الدِّين كُلِّها دقِّها وجلِّها أن نقولَ بموجبها ، ولا نضربَ بعضَها ببعضٍ ، ولا نتعصَّبَ لطائفةٍ علَى طائفةٍ ، بل نُوافق كُلَّ طائفةٍ على ما معها من الحقِّ ، نُخالفها فيما معها من خلافِ الحقِّ ، ولا نستثني من ذلك طائفةً ولا مقالةً ، ونرجو من الله أنْ نحيا على ذلك ، ونموت عليه ، ونَلْقَى اللهَ به ، ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ » (١) .

ومن اللطائف ما نقله المدائنيَ قال : « لَحَنَ الحجَّاجُ يومًا ، فقال النَّاسُ : لحن الأمير ، فأخْبَره بَعْضُ من حَضَرَ ، فَتَمثَّلَ بشعرِ قعنب بن أمِّ الصَّاحب :

صُمٌّ إذا سَمعوا خيرًا ذُكِرْتُ به ... وإنْ ذُكِرْتُ بسُوءٍ عِنْدَهُم أذنوا (٢)

فطانةٌ فَطِنُوها ، لو تكُنْ لَهُمْ ... مُروءةٌ أو تُقَى ، ما فَطِنُوا (٣)

إنْ يَسْمَعُوا شيئًا طاروا به فَرَحًا ... منِّي وإنْ سَمِعوا مِنْ صالحٍ دَفَنوا» (٤)

[٤] الشَّخصيَّة الهروبيَّة :

وهي التي تُسيطر على أصحابها فكرة أنَّهم لا يملكون فعلَ شيءٍ في مواجهة المتآمرين عليهم ، فيدفعهم ذلك إلى الهروب من مواجهة تجاربهم الفاشلة ، ومُحاولة مَعْرفة الأخطاء التي سبَّبَتْ لهمُ الفشل إلى تبرير هذه التَّجارب بما يُبرِّئُ ساحتهم ، ويضع المسئولية على الآخرين الذين لا يكفُّونَ عن التآمر عليهم .

ولا شكَّ أنَّ التَّحاور مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّة يحتاجُ إلى التَّذكير بأنَّ

---

(١) « طريق الهجرتين » (ص٣٩٣) .

(٢) **أذنوا** : استمعوا وأصْغَوْا بآذانهم إلى ما يُقال .

(٣) **الفَطانة** : الفَهْمُ ، والمعنى : أنَّهم يتقبَّلون الإساءة دون أنْ يردُّوها عنك .

(٤) « عيون الأخبار » (٣/ ٩٦) .

العوامل الدَّاخليَّة - في أيِّ عَمَلٍ كان - هي التي تُعْطي العـوامل الخارجيَّة تأشيرة العمل والتَّـأثير ، وأنَّ علينا أنْ نُتْقِـنَ العملَ بدلاً من أنْ نُبَرِّرَ الفـشَلَ ، ونُمارس عبوديَّة الأخذ بالأسبابِ ضمْـنَ ممارسة عبوديَّة التَّوكُّلِ ، وأنْ نعلمَ علْمَ اليقين أنَّ أوَّلَ خُطْوَةٍ في طريقِ ضربِ تآمر الآخرين هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد : ١١] ، فهذه الآية هي نواة التَّـغيير المنشود الذي يجبُ أنْ يسْعى إليه الجمـيعُ في حدود الاستطاعة مع الحذر الواجب وعدمِ اليأسِ .

وهكذا تحتاج كُلُّ شَخْصِيَّةٍ إلى طريقـة في الحوارِ تختلف - قليلاً أو كثيرًا - عن الأخرى ، ومن هنا يُصـبح من الأهميَّة بمكـان معرفةُ شـخصيَّـات الآخرين الذين نتحاور مـعهم لأيِّ سبب كان ، فإنَّ أسلوبَ « جسِّ النَّبْضِ » عـبْرَ أسئلَة عن أمرٍ عامٍّ ليس لها علاقةٌ مباشرةٌ بموضوع الحوار ، قد تُكسبُ بعض الخبْرَة عن الآخرين ، وتُعطينا فرصة التَعرُّف على أفكارهم وشخصيَّاتهم من خلال ميولهم، وطريقتهم في الإجابة، بل وحتَّـى من خلال نبرات أصواتهم في الرَّدِّ، وإشارات أيديهم المُصاحبة لها [١] .

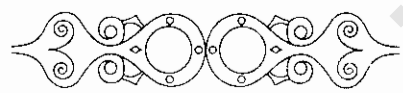

(١) من الكتب الَّتي اطَّلعتُ عليهـا ، وأفـدتُ منها في هـذا الباب كـتـاب « لمحات في فنِّ الحـوار » (ص١٤-١٦) بتصرُّفٍ .

تقويم اللسان

أي أخي، لا شكَّ أنَّ النَّحْوَ من أشرف العلُوم ، مَنْ نالَهُ نالَ فَضلاً عظيمًا، وخيرًا جزيلاً ، وهَلْ يُفْهَمُ الكتابُ والسُّنَّةُ إلاَّ بفَهْمِ النَّحوِ ؟! .

قال الشافعيُّ - رحمه الله - : « اللِّسانُ الذي اختارهُ اللهُ - عزَّ وجَلَّ لِسانُ العربِ ، فأنزلَ به كتابَهُ العزيزَ ، وجَعَلَهُ لسانَ خاتم أنبيائه مُحَمَّد ﷺ ؛ ولهَذَا نقول : ينبغي لكُلِّ أحَدٍ يَقْدرُ على تَعَلُّمِ العربيَّة أنْ يتَعَلَّمها ؛ لأنَّها اللِّسَانُ الأولى» (١) .

وقال أيضا : « يجبُ على كُلِّ مُسْلِمٍ أن يتعلَّمَ من لِسانِ العَرَبِ ما يبلغه جهده في أداء فَرْضِهِ » (٢) .

وقال الماورديُّ - رحمه الله - : « ومعرفةُ لسان العرب فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ من مُجْتَهِدٍ وغَيرِهِ » (٣) .

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « واعلمْ أنَّ اعتيادَ اللُّغَة يُؤَثِّرُ في العَقْلِ والخُلُقِ ، والدِّينِ تأثيرًا قَوِيًّا ، ويُؤَثِّرُ - أيضًا - في مُشَابَهَةِ صَدْرِ هَذه الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين ، ومُشابهتُهُمْ تزيدُ في العقل ، والدِّين والخُلُق ، وأيضًا فإنَّ نفسَ اللُّغَة العربيَّة من الدِّين ، ومعرفتها فرض واجب ؛ لأنَّ فَهْمَ الكتابِ والسُّنَّة فَرْضٌ ، ولا يُفْهَمُ إلاَّ بفَهْمِ اللُّغَة العربيَّة ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلاَّ به فهو واجبٌ » (٤) .

---

(١) « اقتضاء الصِّراط المستقيم » (١/ ٤٦٤) .

(٢) « إرشاد الفحول » (٢٢٢) .

(٣) المرجع السَّابق (٢٢٢) .

(٤) « اقتضاء الصراط المستقيم » (١/ ٤٦٨) .

وقال - أيضًا - : « وكان السَّلَفُ يُؤَدِّبون أولادهم على اللَّحْنِ [١] ، فنحنُ مأمورون - أَمْرَ إيجابٍ أو أمْرَ استحبابٍ - أنْ نَحْفَظَ القانونَ العربيَّ ، ونُصْلِحَ الألسنَةَ المائلَةَ عنه ، فيحفظ لنا طريقة فَهْمِ الكتابِ والسُّنَّة ، والاقتداء بالعرب في خطابها ، فلو تُرِكَ النَّاسُ على لحنِهِمْ كان نقصًا وعَيْبًا » [٢] .

قال ابن بسام :

فَلاَ تَعْدُ إصْلاحَ اللِّسانِ ؛ فإنَّهُ ... يُخَبِّرُ عَمَّا عِنْدَهُ ويُبَيِّنُ
ويُعْجِبُني زيُّ الفَتَى وجَمَالُهُ ... وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْني سَاعَةَ يَلْحَنُ
عَلَى أنَّ للإعرابِ حَدّاً ، وربَّما ... سَمِعْتُ مِنَ الإعرابِ ما ليسَ يَحْسُنُ
ولا خَيْرَ في اللَّفْظِ الكَرِيهِ سَمَاعُهُ ... ولا في قبيحِ الظَّنِّ بِالفِعْلِ أَحْصَنُ

وقال عبد الملك بن مروان : «اللَّحْنُ في الكلامِ أقبَحُ من الجُدَرِيِّ في الوجْهِ»[٣] .

وأَوصَى بَعْضَ بَنِيهِ ، فقال : « يا بَنِيَّ ، أَصْلِحوا أَلْسِنَتَكُمْ ؛ فإنَّ الرَّجُلَ تَنُوبُهُ النَّائِبَة ، فَيَتَجَمَّلُ فيها ، فيستعيرُ من أخيه دابَّتَهُ ، ومن صَدِيقِهِ ثَوْبَهُ ، ولا يجدُ مَنْ يُعِيرُهُ لسانَهُ » [٤] .

قال الشاعرُ :

إنِّي وإنْ كَانَتْ أَثْوابي مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِخَزٍّ[٥] ولا مِنْ نَسْجِ كتَّانِ[٦]
فَإنَّ في المَجْدِ هِمَّاتي وفي لُغَتي ... فَصَاحَةً ولِساني غَيْرُ لَحَّانِ [٧]

---

(١) **اللَّحْن** : الخَطَأ .
(٢) « الفتاوى » (٣٢/ ٢٥٢) .
(٣) « القواعد الأساسيَّة » (ص٣) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٣) .
(٥) **الخَزّ** : الحَرير .
(٦) **الكتَّان** : القُطْن .
(٧) « المفرد العلم » (ص٣٩) .

قال ابنُ فارسٍ - رحمه الله - : « من العلوم الجليلة التي اختصَّتْ بها العربُ الإعرابُ الذي هو الفارقُ بين المعاني المُتكافئة في اللَّفظ ، وبه يُعْرَفُ الخَبَرُ الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيِّزَ فاعلٌ من مفعولٍ ، ولا مُضافٌ من مَنْعوتٍ ، ولا تَعَجُّبٌ مِنِ استفهامٍ ، ولا صَدْرٌ من مَصْدورٍ ، ولا نَعتٌ من تأكيدٍ » (١) .

وقال - أيضا - : « وقدْ كانَ النَّاسُ قديمًا يجتنبون اللَّحنَ فيما يكتبون أو يقرءونه اجتنابَهُمْ بَعْضَ الذُّنوبِ ، فأمَّا الآن فقد تجاوزوا ، حتَّى إنَّ المُحَدِّثَ يُحَدِّثُ فيلحنُ ، والفقيه يُؤَلِّفُ فَيَلْحَنُ ، فإذا نُبِّهَا قالا : ما ندري ما الإعراب ، وإنَّا نحنُ مُحدِّثونَ وفُقهاء ، فهُما يُسَرَّان بما يُسَاءُ به اللَّبيبُ ، ولقد كلَّمتُ بعضَ مَنْ يذهبُ بنفسه ، ويراها من فقه الشَّافعيِّ بالرُّتبةِ العُليَا في القياسِ ، فقلتُ : ما حقيقةُ القياسِ ومعناه ؟ ، ومن أيِّ شَيءٍ هو ؟ ، فقال : ليس على هَذَا ، وإنَّما عَلَى إقامة الدَّليل علَى صِحَّتِه .

فقُلْ لي الآن في رجلٍ يرومُ إقامَةَ الدَّليل علَى صحَّةِ شيءٍ لا يعرفُ معناه ، ولا يدري ما هو ، ونعوذُ بالله من سوءِ الاختيارِ » (٢) .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

النَّحْوُ مِفْتاحُ العُلُومِ وفَهْمُهُ ... يَكْفي العُقُولَ مَشَقَّةً وَعَنَاءَ

فَافْهَمْهُ واحْرِصْ أنْ تنالَ زِمَامَهُ ... يَجْعَلْ طَرِيقَكَ للعُلُومِ ضِيَاءَ

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ : « عِلْمُ العربيَّةَ على ما تسمعُ من خاصٍّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ لجماله في دُنياه ، وكمال آلته في عُلومِ دينه ، وعلَى حسبِ تقدُّمِ العالِمِ فيه وتأخُّرِه يكون رُجْحانُهُ ونُقْصانُهُ إذا ناظرَ أو صَنَّفَ ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ

---

(١) « الصاحبي » (ص٧٦) .

(٢) المرجع السابق (ص٧٧) .

يطلبُ التَرسُلَ ، وقَرضَ الشِّعْر ، وَعَمَلَ الخُطَب والمقامات ، كانَ محتاجًا - لا محالةَ - إلى التَّوسُّعِ في عُلُومِ اللُّغَةِ العربيَّةِ » (١) .

قالَ الشاعرُ :

النَّحوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسانِ الأَلْكَنِ (٢) والمَرْءُ تُكْرِمُهُ إذا لَمْ يَلْحَنِ
وإذا طَلَبْتَ مِنَ العُلُومِ أَجَلَّها فَأَجَلُّها نَفْعًا مُقِيمُ الأَلْسُنِ (٣)

قالَ حمادُ بن سلمةَ : « مَنْ طَلَبَ الحديثَ ، ولم يتعلَّم النَّحوَ -أو قال العربية- فهو كمثلِ الحِمَارِ ، تُعَلَّقُ عليه مخلاةٌ فيها شَعِيرٌ » .

قال الشاعرُ :

إنَّ الَّذي مَلأَ اللُّغَاتِ محاسنًا جَعَلَ الجَمَالَ وسِرَّهُ في الضَّادِ

وقد يقولُ قائلٌ : إنَّ العاميَّة ضرورةٌ لازمةٌ لمُخاطبةِ النَّاسِ عَلَى قَدْرِ عُقولهم، والجوابُ عليه :

قال الدكتور فتحي جمعة أستاذ العلوم اللغوية بكليةِ دارِ العلوم جامعة القاهرة - حفظه الله - :

« إنَّ المخاطبة على قَدْرِ العُقُولِ لا تعني تبَذُّلَ اللُّغَةِ ، أو هبوطَ الكلام ، وانحرافَهُ عن سُنَنِ الفُصْحَى،وإنَّما تعني الابتعادَ عنْ تعْقيدِ الفكرة ، والتَّقعُّرِ في اللُّغة (أي تَعَمُّد اختيارِ الصَّعْبِ من التَّركيبِ والغريبِ الوحْشِيِّ من الكلامِ) .

أمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّةِ بدعوى إفهامِ العوامِّ ، فإنْ لم يكنْ مُدَاراةً للعَجْزِ عنْ الفُصْحَى ، وقِصَرَ الباعِ في استعمالها ، فهو ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفُصْحَى والعوامَّ في وقْتٍ معًا ، يظلمُ الفُصْحَى بأنَّها غيرُ مفهومَةٍ ، ووالله إنَّها لَمَفْهومةٍ ، ويظلمُ

---

(١) القواعد الأساسيَّة » (ص٤) .
(٢) **الألْكَنَ** : الَّذي لا يُقيمُ العربيَّةَ لعجَمَةٍ لسانِه .
(٣) « القواعد الأساسيَّة » (ص٤) .

العوامَّ بأنَّهم لا يفهمون ، وتاللهِ إنَّهم ليفهمون ، وإلاَّ فكيف يخشعونَ للقرآنِ ، ويتأثَّرون ببالغِ الموعظَةِ ، وجميلِ البيانِ ؟! » ا. هـ .

قالَ الشاعرُ :

مَنْ فَاتَهُ النَّحوُ فَذَاكَ الأَخْرَسُ ... وَفَهْمُهُ في كُلِّ يَوْمٍ مُفْلِسُ
وَقَدْرُهُ بَيْنَ الوَرَى مَوْضُوعُ ... وإنْ يُنَاظِرْ فَهُوَ المَقْطُوعُ
لا يَهْتَدِي لِحِكْمَةٍ في الذِّكْرِ ... ومَا لَهُ مِنْ غَامِضٍ مِنْ فِكْرِ

ومن اللَّطائفِ : ما ذكرَهُ ابنُ الجوزيّ - رحمه الله - في كتابه « الحمقى والمغفلين » :

أنَّ رجلاً قال لرجلٍ آخرَ: يا أخي، لقدْ فهمتُ النَّحوَ كُلَّهُ ما عَدَا ثلاثَ مَسَائِلَ، قال : ما هيَ ؟ ، قال : قَوْلُ الرَّجُلِ : أبو ، وأبا ، وأبي ، فقال المسئولُ : أبو تُسْتَخْدَمُ للرَّجُلِ السَّمِينِ ، وأَبَا للرَّجلِ المتوسِّطِ ، وأبي لِلرَّجلِ النَّحيفِ ! .

قال الشاعرُ اللُّغَويُّ مُحمَّد الخضر حسين - رحمه الله - :

لُغَةٌ قَدْ عَقَدَ الدِّينُ لها ... ذِمَّةً يَكْلَؤُها [١] كُلُّ البَشَرْ
أَوَ لَمْ تُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهَا ... كَلِمُ التَّنْزِيلِ في أَرْقَى سُوَرْ
يَا لَقَوْمِي لِوَفَاءٍ إنَّ مَنْ ... نَكَثَ العَهْدَ أَتَى إِحْدَى الكِبَرْ
فَأَقِيمُوا الوَجْهَ في إِحْيَائِها ... وَتَلافَوْا عَقْدَ ما كَانَ انْتَثَرْ

وأخيراً قال شاعرُ النيل مُحمَّد حافظ إبراهيم مُتحدِّثاً بلسانِ حالِ اللُّغةِ العربيَّة ، مُبيِّناً مَا ساءَها :

رَجَعْتُ لِنَفْسِي [٢] فاتَّهَمْتُ حَصَاتِي [٣] ... ونَادَيْتُ قَوْمِي فاحْتَسَبْتُ حياتي [٤]

---

(١) يَكْلَؤُها : يَحْفَظُها ويَرْعَاها .
(٢) رَجَعْتُ لِنَفْسِي : تأمَّلْتُ نَفْسِي .
(٣) حَصَاتِي : عَقْلِي .
(٤) احْتَسَبْتُ حياتي : عَدَدْتُها عِنْدَ اللهِ .

رَمَوني بِعُقْمٍ في الشَّبابِ (١) ولَيْتَني ... عَقِمْتُ فَلَمْ أجْزَعْ لِقَوْلِ عُداتي (٢)
ولَدْتُ ولَمَّا لَمْ أجِدْ لِعَرائسي ... رِجَالاً وأكْفَاءً وأَدْتُ بَناتي (٣)
وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وغَايَةً (٤) ... ومَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وعِظَاتِ
فَكَيْفَ أضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ ... وتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ ؟!
أنَا البَحْرُ في أحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ ... فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي (٥) ؟
فَيَا وَيْحَكُمْ (٦) أبْلَى وتَبْلَى مَحَاسِني (٧) ... ومِنْكُمْ وإنْ عَزَّ (٨) الدَّوَاءُ أُسَاتي (٩)
فَلا تَكِلُوني لِلزَّمَانِ فَإنَّني ... أَخَافُ عَلَيْكُمْ أنْ تَحِينَ وَفَاتي
أيَطْرَبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ نَاعِبٌ (١٠) ... يُنَادِي بِوَأْدِي في رَبِيعِ حَيَاتي ؟!
سَقَى اللهُ في بَطْنِ الجَزِيرَةِ أعْظُمًا ... يَعَزُّ عَلَيْهَا أنْ تَلِينَ قَنَاتي (١١)
حَفِظْنَ وِدَادِي (١٢) في البِلَى (١٣) وحَفِظْتُهُ ... لَهُنَّ بِقَلْبٍ دَائِمِ الحَسَرَاتِ
وفَاخَرْتُ أهْلَ الغَرْبِ والشَّرْقُ مُطْرِقٌ ... حَيَاءً بِتِلْكَ الأعْظُمِ النَّخَرَاتِ (١٤)

---

(١) **رَمَوْني بعُقْمٍ في الشَّبابِ** : اتَّهموني بِأنِّي لا ألِدُ وأنا شابَّةٌ وَلُودٌ .
(٢) **عُداتي** : أعْدائي .
(٣) **وأَدْتُ بناتي** : دَفَنْتُهُنَّ أحْيَاءً .
(٤) **لَفْظًا وغَايَةً** : مَبْنىً ومَعْنىً .
(٥) **صَدَفَات** : جمعُ صَدَفَة ، وهي غِشَاءُ الدُّرِّ .
(٦) **وَيْحَكُمْ** : رَحْمَةً لَكُمْ .
(٧) **بَلِيَ الثَّوبُ** : قَدِمَ وخَلَقَ ، وصَارَ غَيْرَ صالِحٍ للاستعمال ، وبَلِيَ الجِسْمُ : انحلَّ لِعَاهَةٍ ، أو لِطولِ الزَّمَنِ عليه .
(٨) **عَزَّ يَعِزُّ - بفتْحِ العين في المضارع أو بكسرها - : أي صعب .**
(٩) **أُسَاة** : جمعُ آسٍ ، وهو الطَّبيب والجرَّاح .
(١٠) **نَاعِبٌ** : الغُرَابُ حينَ يَصُوتُ ، والرَّجُلُ يُخْبِرُ بِخَبَرِ السُّوءِ كالغُرَابِ .
(١١) **قَنَاة** : المُرادُ بها هنا القامة ، وبلينها الضَّعف والانحلال ، والمعْنَى : يَشُقُّ عَلَيْها أنْ أكونَ ضعيفةً مُنْحَلَّةً .
(١٢) **وِدَادي** : مَحَبَّتي وصُحْبَتي .
(١٣) **البِلَى** : الموتُ وذهاب الأثَرِ .
(١٤) **النَّخَرَات** : البالية .

أَرَى كُلَّ يَوْمٍ بِالجَرَائِدِ مَنْزِلَقًا ... مِنَ القَبْرِ يُدْنِينِي بِغَيْرِ أَنَاةِ (١)

أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي - عَفَا اللهُ عَنْهُمُ - ... إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُوَاةِ (٢)

سَرَتْ لَوْثَةُ الإِعْجَامِ(٣) فيها كما سَرَى ... لُعَابُ الأَفَاعِي(٤) في مَسِيلِ فُرَاتِ(٥)

فَجَاءَتْ كَثَوْبٍ ضَمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً ... مُشَكَّلَةَ الأَلْوَانِ مُخْتَلِفَاتِ

(١) **الأَنَاة** : التَّأَنِّي والتَّمَهُّل .

(٢) **لم تتصل برواة** : أي لَمْ يَأخُذها الخَلَفُ عَن السَّلَفِ بطَرِيقَةِ الرِّوايةِ الَّتي تحفظُها مِنَ التَّغيير .

(٣) **الإعْجَام** : ضَعْف البَيَان ، وسُوء التَّعبير .

(٤) **لُعاب الأَفَاعي** : ما يسيلُ مِنْ أَفْوَاهِ الحَيَّاتِ الخبيثاتِ ، يُريدُ السُّمَّ .

(٥) **مَسِيل فُرات** : مَجْرَى ماءٍ عَذْبٍ .

obeikandl.com

البيَانُ

أيْ أخي المحبَّ ، مازلتُ موصولاً بما تُحبُّ ، اعلمْ - باركَ اللهُ فيكَ وفي علمكَ - أنَّ قوةَ التَّعبيرِ ، وفصاحَةِ اللِّسانِ ، وحُسْنَ البيانِ من أركانِ المَنَاقَشَةِ الجَيِّدَةِ ، والحوار النَّاجح .

فكم من حقٍّ ضاعَ لسوءِ التَّعبيرِ عنه ، وكم من باطلٍ ظَهَرَ ؛ لأنَّ الذي يدعو إليه فصيحٌ بليغٌ ! ، بلْ إنَّ الحقيقَةَ الواحدَةَ قد يَخْتَلِف فَهْمُنا لها بحسبِ الطَّريقَةِ التي قُدِّمَتْ بها إلينا .

وقديماً قال الشاعرُ :

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيينٌ لِبَاطله ... والحقُّ قَدْ يَعْتَريه سُوْءُ تَعْبيرِ

تقولُ : هَذا مُجاجٌ[1] النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإنْ ذَمَمْتَ فقلْ : قَيْءُ الزَّنابيرِ

مَدْحًا وذَمّاً ، وما غَيَّرْتَ مِنْ صفةٍ ... سِحْرُ البَيَانِ يُرَي الظَّلْمَاءَ كالنُّورِ [2]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّه قَدِمَ رجلان من المشرقِ خطبَا ، فعجبَ النَّاسُ لبيانهما ، فقال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ مِنَ البيَانِ لَسِحْرًا » أو : « إنَّ بَعْضَ البَيَانِ سِحْرٌ » [3] .

قال ابن دُريد فيما معناه :

« يُريدُ أنَّ البليغَ يبلُغُ ببيانِه ما يبلُغُهُ السَّاحِرُ في لطافةِ حِيلَتِه » [4] .

---

(١) **المُجَاج** : ما سالَ مِنَ الفَمِ .

(٢) « مفتاح دار السَّعادة » .

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥١٤٦) و (٥٧٦٧) .

(٤) « المجتبَى » (ص١١) .

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - رحمه الله - :

« قوله : « إنَّ من البيان لَسحْرًا » هذا من التَّشبيه البَليغ لكون ذلك يعمل عَمَلَ السَّاحر ، فيجعل الحقَّ في قَالبِ الباطِلَ ، ويجعل الباطلَ في قالبِ الحقِّ ، فيستميل به قلوبَ الجُهَّال ، حتَّى يقبلوا الباطلَ ، ويُنكروا الحقَّ ، ونسأل اللهَ الثَّبات والاستقامة على الهُدَى ، وأمَّا البيانُ الذي يُوضِّحُ الحقَّ ويُقَرِّرُهُ ، ويُبْطلُ الباطِلَ ويُبَدِّدُهُ ، فهذا هو الممدوحُ » [(١)] .

وقال الخطَّابيُّ - رحمه الله - :

« **البَيَانُ اثنان** : أحدهما ما تَقَع به الإبانةُ عن المرادِ بأيِّ وَجْهٍ كان ، والآخرُ ما دَخلتْهُ الصَّنْعةُ بحيثُ يروقُ للسَّامعينَ ، ويستميلُ قلوبهم ، وهو الَّذي يُشَبَّهُ بالسِّحْرِ إذا خلب القلب ، وغلبَ عَلَى النَّفْسِ ، حتَّى يحولُ الشيءَ عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوحُ للنَّاظرِ في معرضِ غيره ، وهذا إذا صُرِفَ إلى الحقِّ يُمْدَحُ ، وإذا صُرِفَ إلى الباطِلِ يُذَمُّ » [(٢)] .

عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّما أنَا بَشَرٌ ، وإنَّكُمْ تَخْتَصمونَ إليَّ ، ولعلَّ بَعضَكمْ أنْ يكونَ أَلْحَنَ [(٣)] بحجَّته من بَعْض ، فأقْضي على نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحقِّ أخيهِ شيئًا فلا يَأْخُذْهُ ؛ فإنَّما أَقْطَعُ له قِطْعَةً منَ النَّارِ » [(٤)] .

قال ابن حجرٍ - رحمه الله - مُعلِّقًا على هذا الحديث :

« وفي هذا الحديث من الفوائد إثمُ مَنْ خَاصَمَ في باطلٍ ، حتَّى استحقَّ به

---

(١) « فَتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد » (ص٣٥٣) .

(٢) الفتح (١/٣٤٨) .

(٣) **ألحن** : أعلَم .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، واللَّفظ له (٢٤٥٨) ، و(٢٦٨٠) ، و(٦٩٦٧) ، و(٧١٦٩) ، و(٧١٨١) ، و (٧١٨٥) ، ومسلم (١٧١٣) .

في الظاهر شيئًا هو في الباطن حرامٌ عليه » .

إلى أنْ قالَ : « وفيه أنَّ التَّعَمُّقَ في البلاغة بحيثُ يحصلُ اقتدارٌ على تزيينِ الباطلَ في صورة الحقِّ وعكسه مذمومٌ ، فإنَّ المراد بقوله : أبلغ ، أي أكثرَ بلاغةً، ولو كان ذلك في التَّوصُّلِ إلى الحقِّ لم يُذَمَّ ، وإنَّما يُذَمُّ من ذلك ما يُتَوصَّلُ به إلى الباطلِ في صورةِ الحقِّ » [(١)] .

وليس من البيانِ استخدامُ الغريب من الألفاظ ، أو التَّقَعُّرِ في الكلامِ (وهو أنْ يتكلَّمَ المرءُ بأقصَى قَعْرِ فَمِه إظهارًا لفصاحته وبراعته) ، فذلك ممقوتٌ مذمومٌ؛ لما فيه من قصدِ التَّكلُّفِ البعيد عن الطَّبْعِ .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرةِ أَسْوَؤُكُمْ أخلاقًا : الثَّرْثارونَ [(٢)] ، المُتَفَيْهِقونَ [(٣)] ، المُتَشَدِّقونَ [(٤)] » [(٥)] .

وعن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البليغَ مِنَ الرِّجَال ، الذي يَتَخَلَّلُ بلسانه كما تَخَلَّلُ البَقَرَةُ بلسانها » [(٦)] .

وهو الذي يُظهر التَّفاصُحَ تِيهًا على الغيرِ ، وتفاصُحًا واستعلاءً ، ووسيلةً إلى الاقتدار في تصغير عظيمٍ ، أو تعظيمِ حقيرٍ ، أو بقصْدِ تعجيزه ، أو تزيين

---

(١) الفتح (١٣/ ١٨٦) .

(٢) الثَّرثار : هو كثير الكلام تكلُّفًا فيما لا فائدةَ فيه .

(٣) المُتَفَيْهِق : أصله من الفَهْق ، وهو الامتلاء ، وهو الذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلام ، ويتوسَّعُ فيه ، ويُغْرِبُ به تكبُّرًا وارتفاعًا ، وإظهارًا للفضيلة على غيره .

(٤) المُتَشَدِّق : المتطاول على النَّاسِ بكلامه ، المتكلِّمُ بِمِلْءِ فيه تفاصُحًا وتعظيمًا لكلامه .

(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٨) ، وأحمد (٤/ ١٩٣) ، وابن حِبَّان (٤٨٢) ، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥) والبَغَويُّ (٢٠١٨) ، وقال الهيثميُّ في المجمع (٨/ ٢١) : رجالُهُ رجالُ الصَّحيح ، وحسَّنه الألبانيُّ في الصحيحة (٧٩١) .

(٦) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) والترمذيُّ (٢٨٥٣) ، وأحمد (٢/ ١٦٥) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ١٨٧٥) ، و الصَّحيحة (٨٨٠) .

الباطلِ في صورة الحقِّ وعكسه، أو يقصد إجلال الحُكَّامِ له، ووَجاهته ، وقَبول شفاعته، وهو يتشدَّق بلسانه كما تتشدَّقُ البقرةُ بلسانها، ووَجْهُ الشَّبَهِ إدارةُ لسانه حَوْلَ أسنانه وفَمه حَالَ التَّكَلُّمِ كما تَفْعَلُ البقرةُ بلسانها حَالَ الأكْلِ ، وهذا كُلُّهُ ما كان على جهةِ الإعجابِ والتَّعاظُمِ [١] .

قال النَّوَوِيُّ - رحمه الله - : « يُكْرَهُ التَّقْعير في الكلام بالتَّشَدُّقِ ، وتكلُّف السَّجْعِ ، والفصاحةَ ، والتَّصَنُّعِ بالمقدِّمات التي يعتادها المُتفاصحون ، وزخارف القول ، فكُلُّ ذلك من التَّكلُّف المذموم ، وكذلك تكلُّف السَّجْعِ ، وكذلك التَّحرِّي في دقائقِ الإعراب ، ووحشيِّ اللُّغَة في حالِ مُخاطَبَةِ العوامِّ ، بل ينبغي أنْ يقصدَ في مُخاطبته لفظًا يفهمه صاحبه فَهْمًا جليًّا ، ولا يستثقله » [٢] .

وليس معنى ذلك ألاَّ يحرصَ المرءُ على حُسْنِ مَنْطقه ، ورشاقَة لَفْظه ، وجودة عبارته ، فيلجأ إلى الألفاظ السُّوقيَّة المُبتذلة فرارًا من التَّكلُّف والتَّقَعُّرِ بزَعْمه ، وإنَّما المقصود ألاَّ يُغْرقَ في التَّكلُّف ، فَيَتعدَّى حدودَ الذَّوْق ، وإلاَّ فإنَّ حُسْنَ المَنْطقِ ، وروعةَ البيانِ من مظاهرِ المُرُوءَة الصَّادقَة ، ومن أَعْظَمِ الأسباب الدَّاعيةِ لِقَبُولِ الحقِّ ؛ ولهذا قيلَ : « كُلَّمَا كانَ اللِّسانُ أَبْيَنَ كانَ أَحْمَدَ » [٣] .

بل لقد ذكرَ اللهُ تبارك وتعالى جميلَ بلائه في تعليمِ البيان ، وعظيمَ نعمته في تقويمِ اللسان ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن : ١ - ٤] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] ، ومَدَحَ القرآنَ بالبيانِ والإفصاحِ ، وبحُسْنِ التَّفصيل والإيضاح ، وبجودةِ الإفهامِ ، وحكمةِ الإبلاغ ، وسمَّاهُ فُرْقانًا كما سمَّاهُ قُرآنًا .

---

(١) انظر « فيض القدير » (٢/ ٢٨٣) .

(٢) « الأذكار » (ص ٢٣١) .

(٣) « البيان والتَّبيين » (١/ ١١) .

وبالجُملَةِ فليحرِص المرءُ على تَجَنُّبِ السُّوقِيِّ القريب ، والوحشيِّ الغريب ؛ حتَّى يكونَ كلامُهُ حالاً بين حالين ، كما قال الشَّاعرُ :

عَلَيْكَ بأوساطِ الأُمورِ ؛ فإنَّها نَجَاةٌ ولا تركَبْ ذَلُولاً ولا صعبًا (١)

قال أبو هلال العسكري: «وأجْوَدُ الكلام ما يكون جَزْلاً سَهْلاً، لا ينغلقُ معناه ولا يُستبهَمُ مَغْزَاهُ، ولا يكونُ مكدودًا مُستكْرَهًا، ومتوعِّرًا مُتقَعَّرًا ، ويكونُ بريئًا من الغثاثةِ ، عاريًا من الرَّثاثَة ، والكلام إذا كان لَفْظُهُ غثّاً ، ومعرضُهُ رثّاً ، كان مردودًا ، لو احتوى على أجلِّ معنىً وأنْبَلِه وأرفعه وأفضَلِه » (٢) .

ومن هُنا يتبيَّنُ لـك - أخي المحاور - أنَّ المذمومَ من البيان إنَّما هو ما كان مُتكلَّفًا ، ومُشتملاً على التَّقعيرِ ، أمَّا حُسْنُ المنطقِ ، وجمالُ العبارةِ ، وحُسْنُ الإشارةِ ، وإيضاحُ الدلالةِ ، وتصحيحُ الأقسامِ ، واختيارُ الكلامِ ، ورشاقةُ الألفاظِ ، وروعَةُ البيان فمحمودٌ مرغوبٌ فيه ، بَلْ هَذا هو السِّحْرُ الحلالُ ، ولا سيَّمَا إذا كان في بيَانِ حقٍّ ، قال عُمَرُ بْنُ عبد العزيز لرجلٍ سألهُ حاجَةً ، فأحْسَنَ المسألَةَ ، فأعجبَهُ قولُهُ : « هَذَا - والله - السِّحْرُ الحَلالُ » (٣) .

قال ابن الرُّومي - وأحسَنَ - :

وَحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَو أنَّها لَمْ تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طَالَ لم يُمْلِلْ ، وإنْ هِيَ أوْجَزَتْ وَدَّ الْمُحَدَّثُ أنَّها لم تُوجِزِ
شركُ العُقُولِ ونزهةٌ ما مِثْلُها للسَّامعينَ وعقْلِه المُسْتَوفِرِ
دُرَرٌ تَعِيْشُ الآذَانُ في نَغَمَاتِها بمطرزٍ عَذْبٍ وَغَيرِ مطرَّزِ (٤)

---

(١) « العمدة » (٢/ ٢٦٦) .
(٢) « كتاب الصناعتين » (ص٦٧) .
(٣) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٥٧) ، و« التَّمهيد » (١٧٤) ، و« أدب المجالس » .
(٤) « الأمالي » (١/ ١١٥) ، و« نهاية الأدب » (٢/ ٧١) ، و« أدب المجالس » (ص٤٦) ، وفي ديوانه: « لو أنَّه لم يُحبَّ » ، و« التَّمهيد » (٥/ ١٧٥) .

وقال يوسف بن هارون:

نطقت بسحرٍ بعدها غيرَ أنَّهُ ... من السِّحرِ ما لم يَختَلِفْ في حلاله
كذلكَ ابنُ سيرينَ بنفثةِ يُوسُف ... تكلَّمَ في الرُّؤيا بمثلِ مقاله [١]

ونظرَ معاويةُ إلى ابن عباسٍ رضي الله عنهم فأتبعَهُ بصرَه، ثم قال متمثلاً:

إذا قالَ لَمْ يَتْرُكْ مقالاً لقائلٍ ... مُصيبٍ ولَمْ يَثْنِ اللِّسانَ على هُجْرِ [٢]
يصرفُ بالقولِ اللِّسانَ إذا انتحى ... ويَنظُرُ في أعطافِه [٣] نظرَ الصقرِ [٤]

ولحسانَ بن ثابتٍ في ابن عباسٍ رضي الله عنهم قوله:

إذا قالَ لَمْ يَتْرُكْ مقالاً لقائلٍ ... بمنطلَقاتٍ لا تَرَى بينها فَصْلا
شفَى وكَفَى ما في النُّفوسِ فلَمْ يَدَعْ ... لِذي إربَةٍ [٥] في القولِ جداً ولا هَزْلا [٦]

قال ابنُ عبد البرّ - رحمه الله -: «ومَنْ أحْسَنِ ما قِيلَ في مَدْحِ البلاغة من النَّظْمِ قولُ حسَّانَ في ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهم:

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زيَّنَ أهْلَهُ ... وفتَّاقُ أبكارِ الكلامِ المُخَتَّمِ
وَعَى ما وَعَى القُرآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ ... ونيطَتْ لَهُ الآدابُ باللَّحْمِ والدَّمِ» [٧]

---

(١) «التَّمهيد» (٥/ ١٧٥).
(٢) **هُجْر - بضمِّ الهاء -**: القبيح من القول.
(٣) **الأعطاف: جمع عِطْف، وهو الجانب.**
(٤) «التَّمهيد» (٥/ ١٧٥).
(٥) **إرْبَة**: حاجة.
(٦) «بهجة المجالس» لابن عبد البرّ (١/ ٥٨)، و«التَّمهيد» (٥/ ١٧٩).
(٧) «التَّمهيد» (٥/ ١٧٨).

دور الأمثلة في الحوار

أيْ أخي ، إنَّكَ لن تَسْتطيعَ الاستغناءَ عن الأمثلَةِ ، وكيفَ تستغني عنها وهي أنْجَحُ مطلبًا ، وأقْرَبُ مذهبًا لتوضيحِ الفكرةِ ، وتقريبُ المعاني ، وشرحها بالنَّظائرِ والأشباه والأشكال ؟! ، وكيفَ تستغني عنها وهي تُساعدُكَ على الوصولِ إلى الحقِّ بأقْرَبِ الطُّرُقِ مع نزهَةِ البالِ ، وترويحِ الخاطرِ ، وحُسْنِ موقعها في القُلوبِ والأسماعِ ، بما لا يكادُ الكلامِ المُرسَلِ يبلُغُ مَبْلَغَهَا ، ولا يُؤَثِّرُ تأثيرها ؟! ، ولهذا قيل : « المَثَلُ أعْوَنُ شَيءٍ على البيانِ » ، وقيلَ : « فالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ » .

وقال المتنبّي :

ونَذِيمِهِمْ (١) وبِهِمْ عَرَفْنا فَضْلَهُ ... وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشيَاءُ (٢)

ونظرًا لأهميَّة المثل وخطورته ، فقدْ ضَرَبَ اللهُ تباركَ وتعالَى للنَّاسِ في كتابِه الكريم من كُلِّ مَثَلٍ ، قال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : ٥٨] ، وقال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وتجدْ الرَّسول ﷺ يضربُ أروعَ الأمثلَةِ في حديثِه ، ولو تتبَّعْنَا ذلك لخرجْنَا بكراريسٍ ، ولكن أكْتَفي بمثالين ، كما قيل : « يكفيكَ مِنَ الزَّادِ ما يُبلغُكَ المحلَّ » .

فعنْ أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ الذي يذكُرُ ربَّهُ

---

(١) نذيمهم : نَذُمُّهُمْ .
(٢) ديوان المتنبِّي (١/ ٢٢) .

والَّذي لا يذكُرُ ربَّه مَثَلُ الحَيِّ والميِّت »[١].

وعن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال النَّبيُّ ﷺ : « مَثَلي ومَثَلُ الأنْبياء كرجلٍ بَنَى دَارًا ، فَأَكْمَلَهَا وأَحْسَنَهَا إلاَّ مَوْضعَ لَبِنَة[٢] ، فَجَعَلَ النَّاسُ يدخُلُونها ، ويتعجبونَ ، ويقولون : لولا مَوْضعُ اللَّبِنَة »[٣] .

ففي هذين الحديثين الشَّريفين ضربَ النَّبيُّ ﷺ المثالين لتقريبِ المعاني إلى الأفهامِ ، قال الحافظُ ابن حجرٍ مُعلِّقًا على الحديثِ الثَّاني : « وفي الحديث ضَرْبُ الأمثالِ للتَّقريبِ للأفهامِ »[٤] .

ومن خلالِ هذه النَّماذج وأمثالها يتأكَّدُ لنا أنَّ القرآنَ الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة يعتمدانِ اعتمادًا كبيرًا على الأمثلة في توضيح المواقف ،وجلاء الحقائق ، وهداية العقْلِ ، وما من بابٍ من فُنونِ العلمِ إلاَّ وله منها نصيبٌ بقدْرِ أَهَمِّيَّتِه ، فما أحْوَجَنَا إلى العودةِ إلى تِلْكَ الثِّمار اليانعَة ، والدَّلائل الباهرَة ، نجنيها ونحذو حذوها ، ونسيرُ في ظلالِ هَدْيها ، وأريج نسيمها ، إنَّها دلائلُ خيرٍ مِنْ لَدُنْ ربٍّ حكيمٍ خبيرٍ .

قال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ [القَصَصْ : ٥١] ، وهُنا فائدةٌ في آداب الأمثلَة ، لعلَّ الله ينفعك بها ، لكنْ لا تَظُنَّ أنِّي سوفَ أُفْرِغُ لك ما في جُعْبَتي ، فما كُلُّ ما يلمعُ ذهبًا ، **ورحِمَ اللهُ القائل** :

وما كُلُّ نارٍ نارَ مُوسى لُمُهْتَدٍ ولا كُلُّ بَرْقٍ في الثِّقَالِ الهواضِبِ

---

(١) **أخرجه البخاريُّ** (٦٤٠٧) .

(٢) **اللَّبِنَة : هي الَّتي يُبْنَى بها الجدار** .

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٥٣٤) ، **ومسلمٌ** (٢٢٨٧) .

(٤) « الفتح » (٦/٥٥٩) .

وها هي الفائدَة دُونَكَ ، وعليْكَ مَهْرُهَا :

قال الإمامُ الماورديُ - رحمه الله - في بيان آداب الكلام :« ومِنْ آدابه أنْ يجتَنِبَ أمثالَ العامَّـة الغَوْغَاء [1] ، ويتخصَّصَ بأمثـال العلماء الأُدباء ؛ فإنَّ لكُلِّ صنف من النَّاس أمثالاً تُشاركهم ، فلا تجدُ لساقطٍ إلاَّ مثلاً ساقطًا ،وتشبيهًا مستقبحًا .

وللسُّقَّاط أمثالٌ ، فمنها تمثّلهم للشيء المُريب ، كما قال الصنوبريُّ :

إذَا مَـا كُنْتَ ذَا بَوْلٍ صـحـيـحٍ ألاَ فـاضْـرِبْ بِـهِ وَجْـهَ الـطَّبـيـبِ

ولذلك علَّتان :

إحداهما :أنَّ الأمثـالَ مِنْ هواجسِ الهِمَمِ وخطراتِ النّفـوسِ ، ولم يكُنْ لذي الهمَّة السَّاقطَة إلاَّ مَثَلٌ مرذولٌ ، وتشبيهٌ معلولٌ .

والثانيةَ :أنَّ الأمثالَ مُستَـخْرَجَةٌ مِنْ أحْوالِ المتَمثِّلين بها ، فـبحسب ما هُمْ عليه تكونُ أمثالُهُمْ .

فلهاتَيْنِ العلَّتـيْنِ وَقَعَ الفَرْقُ بين أمثال الخـاصَّة وأمثال العـامَّة ، وربَّما أَلَّفَ المُتَخَـصِّصُ مثَلاً عامِّـيّاً ، أو تشبيـهًا ركيكًا لكثْرَةِ مـا يَطْرقُ سَمْعَهُ من مُـخالطَةِ الأراذل ، فيـسـترسِلُ في ضربـه مثَلاً ، فـيصـير به مَـثَلاً ، كـالذي حُكِيَ عن الأصمعيِّ أنَّ الرَّشيـدَ سألَهُ يومًا عنْ أنساب بعض العربِ ، فقـال : على الخبيرِ سـقطت يا أميـر المؤمنين ، فقـال له الفـضْلُ بْنُ الرَّبيع : أسْقَطَ اللهُ جَنْبَـيْكَ ، أتُخاطِبُ أميرَ المؤمنينَ بمثلِ هذا الخطاب ؟! .

وكان الفَـضْلُ بْنُ الرَّبيع - معَ قِلَّةِ علْمه - أَعْلَمُ بما يُسْتَـعْمَلُ من الكلامِ في مُحاورَةِ الخُلَفَاءِ مِنَ الأَصْمَعِيِّ الذي هو واحدُ عصْرِهِ ، وقَرِيعُ دَهْرِهِ .

ولِلأمـثالِ من الـكلامِ موقعٌ في الأسْـمـاعِ ، وتأثيـرٌ في القُلُوبِ ، لا يكادُ

---

(١) **الغَوْغاء** : سقط النَّاس وهملهم .

الكلام المُرْسَل يَبْلُغُ مَبْلَغَها ، ولا يُؤَثِّرُ تأثيرها ؛ لأنَّ المعانيَ بها لائحةٌ والشَّواهدَ بها واضحةٌ ، والنّفوسَ بها وامقةٌ [١] ، والقُلوبَ بها واثقةٌ ، والعُقولَ لها موافقةٌ؛ فلذلك ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ في كتابه العزيز ، وجَعَلَها من دلائلِ رُسُلِه ، وأوضحَ بها الحُجَّةَ على خَلْقِه ؛ لأنَّها في العُقُولِ مَعْقولَةٌ، وفي القُلوبِ مقبولةٌ.

ولها أربعةُ شُروطٍ :

أحدها : صحَّةُ التَّشبيه .

والثَّاني : أنْ يكونَ العِلْمُ بها سابقًا ، والكُلُّ عليها موافقًا .

والثَّالثُ : أن يُسْرِعَ وصولها للفَهْمِ ، ويعجِّل تصوُّرها في الوهْمِ من غير ارتياءٍ في استخراجها ، ولا كَدٍّ في استنباطها .

والرَّابع : أنْ تُناسبَ حالَ السَّامعِ ؛ لتكونَ أَبْلَغَ تأثيرًا ، وأَحْسَنَ موقعًا .

فإذا اجتمعَتْ في الأمثالِ المضروبةِ هذه الشُّروطُ الأربعةُ ، كانتْ زينةً للكلامِ، وجلاءً للمعاني ، وتدبُّرًا للأفهامِ » [٢] .

---

(١) وامقَة : مُحبَّة ، يُقال : وَمَقَهُ يَمقُهُ مقَةً ، إذَا أَحبَّهُ فهو وامقٌ .

(٢) « أدبُ الدُّنيا والدين » (ص٢٨٥-٢٨٦) ، وقد آثَرْتُ نَقْلَ كلامِه هَذا علَى طُولِه لنفاسَتِه .

لكل مقامٍ مقالٌ

لكُلِّ مقامٍ مقـالٌ ، ولكُلِّ مُناسَبَةِ حالٍ ، وليسَ كُلُّ ما يُسـمَعُ يُقال ، وخيرُ الكلامِ ما وافق الحال .

قال الشاعرُ :

تَـرَفَّــقْ عَـلَــيَّ - هَـدَاكَ المَـلِيكُ - فَــإِنَّ لِكُـلِّ مَــقَــامٍ مَــقَــالاً

قال الإمامُ الشاطبيُّ - رحمه الله - : « ليسَ كُلُّ ما يُعْلَمُ مِـمَّا هو حَقٌّ يُطْلَبُ نَشْرُهُ ، وإنْ كانَ من عِلْمِ الشَّريعَةِ ، ومِمَّا يُفيدُ عِلْمًا بالأحكامِ ، بل ذلك ينقَسِمُ : منه ما هو مطلوب النَّشـر - وهو غالبُ علمُ الشَّريعَـة - ، ومنهُ ما لا يطلب نشره بالنِّسْبَةِ إلى حالٍ ، أو وقْتٍ ، أو شخْصٍ »[1] .

فعليكَ - أخي الحبيب - أن تنظُرَ للظروفِ الثَّـلاثةِ التي ذكرَهَا الشاطبيُّ قَبْلَ أيِّ حوارٍ .

والظروف الثَّلاثة هي :

[١] المكان : وقد عبَّرَ عنه بالحالِ .

[٢] الزَّمان : وقدْ عبَّرَ عنه بالوقتِ .

[٣] الإنسانُ : وقد عبَّرَ عنه بالشَّخْصِ .

أوَّلاً : المكان :

قـد يكون ناديًا عـامًّـا ، أو بيت صـديقٍ ، أو مكتبَ عـملٍ ، وقـدْ يكونُ طيَّارَةً، أو سيَّارةً ، أو نزهَةً ، فلابُدَّ أن نُراعي المكانَ المناسبَ ، فلو جاءَكَ إنسانٌ - مثلاً - وقـال لك : عندي مشكلةٌ ، وكنتمـا على مَمَرٍّ ضيِّقٍ يمرُّ به النَّاس ، أو

---

(١) « الموافقات » (٤/ ١٨٩ - ١٩٠) .

شارعٍ تقفُ معه فيه ، فهل هذا المكان مُناسبٌ للحوارِ ، أمْ أنَّه لابُدَّ أن تختارَ مكانًا مُناسبًا يشعرُ فيه مُحاورك بالتَّقديرِ ؟ .

ومن ذَلكَ أن يكونَ الحوارُ في مسجدٍ ، فهذا يتطلَّب قَدْرًا كبيرًا من الحكْمَةِ والهدوءِ ، وقَدْرًا كبيرًا من العِلْمِ ، ولاسيَّما إذا كان الحوارُ عامّاً ، طَالما أنَّ في بعضِ المساجدِ طوائف ذات أهواء ومشارب ، فإذا كُنتَ تُحاور شخصًا معيّنًا ، فما تكادُ تظهرُ عليه إلاَّ وتجدْ شخصًا آخر قد أخذَ دَفَّةَ الحوار ذات اليمين وذات الشّمال ، وهكذا دواليك ، والأمرُ كما قيل :

ولو كانَ سَهْمًا واحدًا لاتَّقيتُهُ ولكنَّهُ سَهْمٌ ، وثانٍ ، وثالثُ

وإنْ كانَ الحوارُ في مكانٍ مليءٍ بالنَّاسِ ، فذلكَ مدعاةٌ للرِّياءِ والعِناد ، والحرصُ على الغَلَبَةِ والإطاحَةُ بالخَصْمِ، فمن الأفضَلِ أنْ يكونَ الحوار في مكانٍ مُحَدَّدٍ ؛ فذلك أجمعُ للفكرةِ ، وأدْعَى لِقبولِ الحقِّ ، وأسْلَمُ لحُسْنِ القَصْدِ .

ثانيًا : الزَّمان :

من حيثُ اتِّسَاعه للموضوعِ ، وذلك بألاَّ يكونَ الحوارُ في وقتٍ لا يتَّسعُ للأخْذِ والرَّدِّ، كأنْ يكونَ قُبَيْلَ وقْتِ الصَّلاة، أو يكونَ أحدهما على جناحِ سفرٍ، أو يكونَ مستعداً للنَّوْمِ ، أو قدْ يكونَ قادمًا من سفرٍ في حالة إرهاقٍ نفسيٍّ فيحتاجُ للرَّاحَةِ ، أو نحو ذلك .

فلابُدَّ من تهيئَةِ الجوِّ المناسبَ ، وذلك بأنْ تُحَدِّدَ الوقْتَ والمكانَ والموعدَ ؛ حتَّى يشعُرَ مُحاورك أنَّكَ أعطيته اعتبارَه وأهميَّته ، فتكسب ثقته ، وتستعبدَ قلبه ويكون تأثيرك فيه عظيمًا .

وقد يكون الزَّمانُ زمانَ بدعٍ ، أو جَوْرِ سُلطانٍ ، أو غَلَبَة باطلٍ ، فهذا يتطلَّب قدرًا من الحِكْمَةِ والتفطُّن ؛ حتَّى لا تُشَوِّشَ علَى العامَّةِ ، فتحدُثُ نكبَةٌ تكون أنتَ سببها .

قال الشاعر:

وإنَّ كـلامَ المَـرْءِ في غَـيْرِ كُـنْـهِـهِ كالنَّبْلِ [١] تَهوي ليسَ فيها نِصَالُها [٢]

ثالثًا : الإنسانُ :

لابُدَّ من مراعاة حـالة الحضورِ ، هلْ هُمْ على مُسـتوى الحِوار ، أم أعلى ، أم أدنَى ؟ ، فالنَّاسُ لَيْسُـوا طرزًا واحِدًا ، والعقولُ تتفاوت ، والأفـهامُ تتباينُ ، ولابُدَّ من مُراعاةِ هذا التَّبايُنِ ، وذلك التَّفاوت .

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية : « ليسَ كُلُّ ما عرفه الإنسانُ أمكنَهُ تعريف غيره به ؛ فلهذا كان النَّظَرُ أوسَعَ من المـناظَرَةِ ، فكُلُّ ما يُمكن المناظرة به يُمكن النَّظرُ فيه ، وليسَ كُلُّ ما يُمكِنُ النَّظَرُ فيه يُمكنُ مناظَرة كُلِّ أَحَدٍ بِهِ » [٣] .

فلابُدَّ للمحاور من الاقتصار على قَدْرِ فَهْمِ السَّامعِ ، فقد قيل : « كِلْ لكُلِّ عبْدٍ بمـعيارِ عَقْلِه ، وزِنْ له بميـزان فَهْمِه ؛ حـتَّى تَسْلَمَ منه ، وينتفعَ بك ، وإلاَّ وقَعَ الإنْكارُ لتفاوتِ المعيارِ » [٤] .

وعرَّفَ العلماءُ البلاغةَ بأنَّها : مُطابقة الكلام لمُقتضى حال السَّامعينَ [٥] .

واللهُ تبارك وتعـالى ، أمَرَ نبـيَّه ﷺ بمراعـاة الأحوالِ والأشـخاصِ ، ثُمَّ اختيار الوسيلة والأسلوب المناسب لهم .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥] .

---

(١) **النَّبْل** : واحد النِّبال ، وهي السِّهام العربيَّة .

(٢) **النِّصال** : واحدها نَصْل ، وهو الحديدة التي في رأسِ السَّهم ، ويجمع - أيضًا - على أنْصُلٍ .

(٣) « الفتاوى » (٣/ ٣١٢٥) .

(٤) « الإحياء » (١/ ٧١) .

(٥) « بغية الإيضاح » (١/ ٢٦) .

قال ابن القيم في تفسير هذه الآية : « جَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى ، مراتبَ الدَّعوة بحسبِ مراتبَ الخَلْقِ ، فالمستجيب الذَّكيُّ الذي لا يُعاندُ الحقَّ ولا يأباه يُدْعَى بطريقة الحِكْمَة ، والقابل الذي عنده نوعُ غَفْلَةٍ وتأخُّر يُدْعى بالموعظة الحسنة (وهي الأمر والنَّهي المقرون بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ)، والمُعاندُ الجاحدُ يُجادَلُ بالَّتي هي أحْسَنُ » (١) .

ولقدْ حذَّرَ سَلَفُنا الصَّالحُ من تحديثِ النَّاسِ أو مُناظرتهم فيما لا تُدْرِكُهُ عقولهم .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما أنتَ بمُحَدِّثٍ قَوْمًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهم إلاَّ كان لِبَعْضِهِمْ فتنةً » (٢) .

وقالَ عُرْوَةُ بن الزُّبَيْر رضي الله عنه : « ما حدَّثتَ أحدًا بشيءٍ من العِلْمِ قَطُّ لا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ إلاَّ كانَ ضلالَةً عليه » (٣) .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : « حَدِّثوا النَّاسَ بِما يَعْرِفُونَ ، ودَعُوا ما يُنكِرونَ ؛ أتُحبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ » (٤) .

ومعنى يَعْرِفون: يَفْهَمونَ، والمُرادُ بقوله: يُنكِرونَ :ما يَشْتَبِهُ عليهم فَهْمُهُ (٥) .

قال صاحبُ عمدة القارئ - رحمه الله - :« أمر عليٌّ رضي الله عنه في قوله هذا بمراعاة مُستَوى فَهْمِ النَّاس عندَ التَّحدُّثِ إليهم ، وبيَّنَ ما يترتَّبُ علَى عَدَمِ مُراعاتِهِ من

---

(١) « التَّفسير القيِّم » (ص٣٤٤) .
(٢) مُقدِّمَة صحيح مسلم (١/ ١١) .
(٣) « سير أعلام النُّبلاء (٤/ ٤٣٧) .
(٤) أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا حيث قال : « باب مَنْ خَصَّ بالعلم قومًا دُونَ قومٍ كراهيةَ ألاَّ يفهموا » الفتح (١/ ٢٢٥) .
(٥) الفتح (١/ ٢٢٥) .

تكذيبِ الله تعالى ورسولِه ﷺ ؛ لأنَّ الشَّخْصَ إذا سَمِعَ ما لا يفهمه ، وما لا يتصورَّ إمكانه ، يعتقدُ استحالته جَهْلاً ، فلا يُصَدِّق وجودَهُ ، فإذا أُسْنِدَ إلى الله ورسولِه يلزَمُ تكذيبهما » (١) .

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ - رحمه الله - مُعَلِّقًا على قولِ عليٍّ رضي الله عنه : « وفيه دليلٌ على أنَّ المُتشابِه لا ينبغي أنْ يُذْكَرَ عندَ العامَّةِ » (٢) .

ومن اللطائف :أنَّ أحدهم سَأَلَ الخليل بن أحمد الفراهيديَّ - رحمه الله - عن مسألَةٍ ، فأطْرَقَ مَلِيًّا (٣) فتَعَجَّبَ السَّائلُ ، وقال له : « إنَّ هذه المسألَةَ لا تحتاجُ لكُلِّ هَذَا » ، فقال له الخليل : « قدْ علمتُ مسألتك ، وعلمتُ جوابها ، ولكنَّني أُفكِّرُ في جوابٍ أسرعَ لفَهْمِكَ ، فأعْياني (٤) ذلك » .

وعليه إذا استطاعَ المحاور أن يُلاحظَ الظَّرفَ المناسبَ في هذه الجهات الثلاث، أخْلصَ النِّيَّةَ ، ودَخَلَ في الحوارِ ، وإلاَّ سكَتَ أو تَرَيَّثَ .

قال ابنُ القيِّم - رحمه الله - : « وضابطُهُ أنَّكَ تَعْرِضُ مسألتك على الشَّريعة ، فإنْ صَحَّتْ في ميزانها ، فانظرْ إلى ما لها إلى حال الزَّمان وأهله ، فإنْ لم يُؤدِّ ذكْرُها إلى مَفْسَدَةٍ ، فاعرِضْها في ذهنكَ على العقول ، فإنْ قابلتها فلك أنْ تتكلَّمَ فيها ، إمَّا على العمومِ إنْ كانت ممَّا تقبله العقولُ ، وإمَّا عَلَى الخُصوصِ إنْ كانتْ غيرَ لائقةٍ بالعمومِ ، وإنْ لم يكُنْ لمسألتكَ هذا المساغ ، فالسُّكوتُ عنها هو الجاري وِفْقَ المصلَحَة الشَّرعيَّة والعقليَّة » (٥) .

---

(١) « عمدة القارئ » (٢/ ٢٠٥) .
(٢) الفتح (١/ ٢٢٥) .
(٣) مَلِيًّا : وقتًا طويلاً .
(٤) أعْياني : أعْجَزَني .
(٥) « أعلام الموقعين » (٤/ ١٦٣) .

قال عبد الكريم العماد :

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا مَنْطِقًا فَاحْتَرِزْ لَهُ ... مَتَى ثُمَّ مَاذا ثُمَّ كَيْفَ سَتَنْطِقُ

فَكَمْ مِنْ فَتَى في قَلْبِهِ العِلْمُ زَاخِرٌ ... وَلَكِنَّهُ في سَاحَةِ القَوْلِ يُخْفِقُ

وَرُبَّ فَتَى قَدْ حَازَ عِلْمًا وَمَنْطِقًا ... فَهَذَا لَهُ فَخْرٌ ، وذَلِكَ رَوْنَقُ

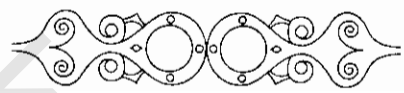

opeikandl.com

الكلمة الطيبة

يا لله كم للكلمة الطيبة من أثرٍ في النفوسِ ! ، وكمْ لها من وقْعٍ في القلوب ، فكم من مودةٍ استُجْلِبَتْ بها ! ، وكمْ من عداوةٍ وُئِدَتْ بسببها !! .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾ { الإسراء : ٥٣ } .

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « يأمر - تبارك وتعالى - عَبْدَهُ ورسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَ الله المؤمنين أنْ يقولوا في مخاطبتهم ومُحاورتهم الكلامَ الحسنَ ، والكلمة الطيِّبة ؛ فإنَّهم إنْ لم يفعلوا ذلك نَزَغَ الشَّيطانُ بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفَعال ، ووقع الشَّرُّ والمخاصمة والمقاتلةُ ؛ فإنَّه عَدُوٌّ لآدمَ وذُرِّيَّتِه من حين امتنعَ عن السُّجُودِ لآدمَ ، وعداوتُهُ بيِّنَةٌ » (١) .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ { البقرة : ٨٣ } .

قال العلامة السعديُ في تفسير هذه الآية : « ومن القول الحسن أمْرُهُم بالمعروف ، ونَهْيُهُمْ عنِ المنكرِ ، وتعليمُهُم العلمَ ،وبَذْلُ السَّلامَ والبشاشَةَ ، وغير ذلك من كُلِّ كلامٍ طَيِّبٍ ، ولمَّا كانَ الإنسانُ لا يَسَعَ النَّاسَ بماله أُمِرَ بأمرٍ يقدر به على الإحسان إلى كُلِّ مخلوقٍ ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون ضمن ذلك النَّهْي عن الكلام القبيح حتَّى للكفَّارِ » (٢) .

وقال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام عندما بعثه إلى فرعون : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ .

{ طه ٤٣ - ٤٤ } .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٥) .

(٢) « تيسير الكريم الرّحمن » (ص٥٧) .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ [النَّازعات : ١٧ - ١٩] .

قال ابن القيّم - رحمه الله - : « وتأمَّلْ امتثالَ موسى لما أُمِرَ به ، كيف قال لفرعون : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ ، فأخرجَ الكلام معه مخرج السُّؤال والعَرْض ، لا مخرج الأمر ، وقال : ﴿ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ، ولم يَقُلْ : إلى أنْ أُزَكِّيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التَّزكِّي دون غيره ؛ لما فيه من البركة والخير والنَّماء ، ثُمَّ قال : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، أكون كالدَّليل بين يديك الذي يسيرُ أمامَكَ ، وقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ؛ استدعاءً لإيمانه بربِّه الذي خلقه ورزقه وربَّاه بنعمه صغيرًا وكبيرًا » [(١)] .

فانظر - أخي الحبيب - في تلك الكلمات النَّيِّرات المباركات الطَّيِّبات التي تأخذُ باللُّبِّ ، وتنفذ إلى شغاف القلب [(٢)] ، لولا أنَّها وجدت قلبًا قاسيًا عاتيًا ماردًا ، تشرَّبَ الكفر والطُّغيان ، لأثَّرتْ به ، وقادتْهُ إلى الهُدَى والرَّشادَ .

ولقد أجادَ مَنْ قالَ - وأحسنَ - :

بالله لَفْظُكَ هَذَا سَالَ مِنْ عَسَلٍ ... أَمْ قَدْ صَبَبْتَ عَلَى أَفْواهنا العَسَلا؟!
أَمِ المعاني اللَّواتي قَدْ أَتَيْتَ بها ... بها الدَّراري والياقوتُ مُتَّصلا ؟!

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ .

[مريم : ٤٢ - ٤٥] .

---

(١) « البدائع » (٣/ ١٣٢) .
(٢) شِغاف القلب : غِشَاؤُهُ وغلافُهُ .

قال ابن القيم - رحمه الله - مُعلقًا على هذه الآيات :

« فابتدأ خطَابَهُ بذكر أُبُوَّته الدَّالة على توقيره ، ولم يُسَمِّه باسمه ، ثُمَّ أخرجَ الكلام معه مخرجَ السُّؤال ، فقال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ ، ولمْ يقلْ : لا تعبدْ .

ثمَّ قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ، فلم يقلْ : إنَّكَ جاهلٌ لا علمَ عندك ، بل عَدَلَ عن هذه العبارة إلى ألطفِ عبارة تدلُّ على هذا المعنى ، فقال : ﴿ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ .

ثُمَّ قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ ، فنسبَ الخوف إلى نفسه دون أبيه ، كما يفعلَ الشفيق الخائف على مَنْ يُشْفقُ عليه ، وقال : ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكَرَ لفظَ المسِّ الذي هو ألطَفُ من غيره ، ثمَّ نكَّر العذاب ، ثمَّ ذكَرَ الرَّحمَن ، ولم يذكر الجبَّار ولا القَهَّار ، فأيُّ خطابٍ ألطَفُ وألْينُ من هذا ؟! » [١] .

وإذا كان القولُ الحسنَ يَجْمُلُ مع كُلِّ أحَدٍ ، فَمِنْ بابٍ أولى أن يَجْمُلَ مع مَنْ له حقٌّ ، أو جاهٌ ، أو رياسَةٌ ، فهكذا كان رسول الله ﷺ يُخاطبُ رُؤساء العشائرِ والقبائلِ .

قال ابنُ عَقيلٍ الحنبليُّ في الواضح : « وإنْ كان أعلى فليتحرَّ ويتجنَّبَ القولَ له: هذا خطأٌ أو غلطٌ ، أو ليس كما تقول ، بل يكون قوله : أرَأَيْتَ إنْ قال قائلٌ : يَلْزَمُ على ما ذكرتَ كذا ، وإنْ اعترض على ما ذكرتَ معترضٌ بكذا ؟ ؛ فإنَّ نفوس الكرام الرُّؤساء المقدَّمين تأبى خُشونَةَ الكلامِ ؛ إذ لا عادَةَ لهم بذلك ، وإذا نُفِّرَتْ عَميتِ القلوبُ ، وجمدت الخواطر ، وانسدَّتْ أبواب الفوائد بِسَفَهِ السَّفيهِ ، وتقصير الجاهل في حُقوقِ الصُّدورِ » [٢] .

---

(١) « البدائع » (٣/ ١٣٣) .

(٢) « شرح الكواكب المنيرة » (ص٣٧٩) .

وقال بدرُ الدين بن جماعة - رحمه الله - في بيانِ آداب الطالبِ مع شيخه : « ولا يقولُ لما رآه الشيخ - وكان خطأً - : هذا خطأٌ ، ولا هَذا ليس برأيٍ ، بل يُحَسِّنُ خطابَهُ في الرَّدِّ إلى الصَّوابِ ، كقوله : يظهر أنَّ المصلحة في كذا ، ولا يقولُ : الرَّأيُ عندي كذا ، وشِبْه ذلك » (١) .

وما أجملَ ما قاله يحيى بن معاذٍ - رحمه الله - : « أَحْسَنُ شيءٍ كلامٌ رقيقٌ ، يُسْتَخْرَجُ من بَحْرٍ عميقٍ على لسانِ رجلٍ رفيقٍ » (٢) .

ومن اللطائفِ ما ذكره الإمام السَّخاويُّ نقلاً عن المُزَنيّ قوله : « سمعني الشَّافعيُّ يومًا وأنا أقولُ : فلانٌ كذَّابٌ ، فقال لي : يا إبراهيمُ ، اكسُ ألفاظك أحسنها ، لا تقلْ : كذَّاب ، ولكن قُلْ : حديثُهُ ليس بشيءٍ » (٣) .

فاحذَرْ أخي المحاور من سقطات فمك ، وعثراتِ لسانك ، فقد تُؤَدِّي بحوارك إلى الضَّياع والفشل الذَّريع ! .

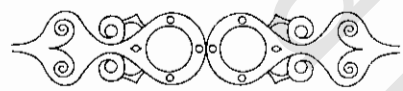

(١) « تذكرة السَّامع والمتكلم » (ص١١٢) .
(٢) « بهجة المجالس للأثريِّ » .
(٣) « الإعلان بالتَّوبيخ لِمَنْ ذَمَّ التَّاريخ » (ص٦٨-٦٩) .

obeikandl.com

حاوِرْهُ باسْمِهِ
﴿إيَّاكَ أنْ تنسى اسم محاورك﴾

إذا تعارفتَ على شَخْصٍ بين أُناسٍ ، ثُمَّ انفضَّ النَّاسُ من حولك ، لتجلس بجوارِ الشَّخْصِ نَفْسِه ، فتُناديه : يا أبا فُلانٍ ، أو يا فُلانُ ، لأقْبَلَ عليكَ مُسْتَبْشِرًا متهلِّلاً ، ولسانُ حالِه : لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ .

وإذا التقيتَ بالشَّخْصِ الذي تعارفتَ عليه سابقًا ، وقال لك : يا فُلانُ ، هَلْ تذكر اسمي ؟ ، أو احتجْتَ أنْ تُنادِيَهُ ، أو قالَ لك زميلك : مَنْ يكونُ هذا الأخ ؟ ، لأُصِبْتَ بالإحراجِ ، فهَلْ ثَمَّةَ سِرٌّ ؟ .

نعم ، السِّرُّ أنَّ حفظكَ لاسم مُحاورك دليلٌ على تقديرك واحترامك لشخصه ، فليسَ ثمَّةَ شيءٌ أجملُ وأحبُّ إليه من اسمه .

فحفظُ الأسماء لابُدَّ منه لمن يُحِبُّ التَّآلف مع النَّاس ، ودعوتهم إلى الله ومُشاركتهم ومُخالطتهم ، وكسب وُدِّهم ، وإعطاءَهم وُدَّهُ .

لكن كيفَ يُمكنُ حفظُ أسماءَ النَّاس ؟ .

هناك أربعُ خُطواتٍ تُمكِّنك من حفظ اسم من التقيْتَ به وتعارفتَ عليه [١] :

[١] معنى الاسم :

بمجرَّدِ أنْ يُذكرَ لك الاسم حاول أن تجد له معنىً .

[٢] الوَجْه :

أي وجْهُ الشَّخص الذي تعارفتَ عليه ، انظر إليه جيِّدًا ، واختَرْ جانبًا بارزًا منه (الأنف ، الجبهة ، العينين ، الذَّقْن . . . أو غير ذلك) .

---

(١) انظر مجلَّة الغذاء العدد ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٠م ، مقال بعنوان « حلول علميَّة » .

[٣] ربط معنى الاسم بالوَجْه :

حاول أنْ تربط بين المعنى وعلامة الوجه المختارة ، إنْ لم تجد استخدم الخيال (أيّ خيالٍ حتَّى ولو كان غريبًا) .

[٤] التِّكْرار :

كرِّرْ في نفسك الاسم بالوجه بالمعنى لعددٍ من المرَّات في المجلس نفسه ، ولنضرب لك مثلاً :

تعارفتَ على أخٍ ، وذكر لك اسمه شُكْرِي ، ابدأ بممارسة الأربع خطوات مباشرة :

- معنى الاسم : شكري من الشُّكْرِ ، الشُّكر لله ، شكر النَّاس .
- الوَجْه : عيناه واسعتان وبرَّاقتان (هذه أبرز علامة) .
- ربط معنى الاسم بالوجه : معنى الاسم من الشُّكْر ، وعيناه واسعتان برَّاقتان ، يُمكن أن تربطَ بينهما بقولك : عليْهِ أنْ يشكرَ الله على هاتين العينين .
- التِّكْرار : اسمه شكري ، عيناه واسعتان ، إذًا من شكري ، الشكر لله على العَيْنَين الواسعتين .

خلال المجلس - أو الحديث معه - حاول أنْ تُناديَه باسمه : يا أخ شكري، والله يا شكري ، وتذكَّرْ أنَّ عليه أنْ يشكر الله على العينين .

أكثر من حلٍّ :

قدْ يتعذَّرُ عليك أنْ تجد للاسم معنىً ، أو تجد علامةً في الوجْهِ ، لا عَلَيكَ إنَّ هناك أكثر من حَلٍّ ، ولكن ومع جميع الحلول إلاَّ أنَّ الفكرة واحدة ، وهي المعنى والرَّبط ، أو الرَّبط والتَّشابه ، فمثلاً : تعارفتَ على شخْصٍ اسمه أحمد، لم تجد في وجهه ما يُميِّزُهُ ، أو ما يُمكن أنْ تمسك به ، لا عليكَ تذكَّر أشْهَر

إنسانٍ تعرفه اسمه أحمد ، ليكن أحمد أخاك الصَّغير ، ستجد عددًا من المفارقات، فمثلاً : وجدْتَ أنَّ أنفه كبير ، وأنف أخيك صغير ، إذًا كرِّرْ : رغمَ أنَّ اسمه أحمد إلاَّ أنَّ أنفه كبير بعكس أحمد أخي . . . كرِّرْ .

وماذا لو لم تَجِدْ أيَّ سبْطٍ بينهما ؟ .

الأمرُ بسيطٌ ، ابحثْ عن أحمدٍ آخر ، وثالث ، ورابع حتَّى تربط ، ولكن أسرعْ في البحثِ .

الطَّرائق أكثر :

الطَّرائق بفلسفة المعنى ، والرَّبط ، والتِّكْرار أكثرَ من أنْ تُحْصَى هنا ، فيُمكن استخدام طريقة تفكيك الاسم إلى مقاطع ، وربط أحد المقاطع ـ أو أوَّلها - بمعنى كلمةٍ ، أو شيءٍ معروفٍ ، فمثلاً :

شاهرٌ اسم مكوَّنٌ من « شاهي » و « ر » ، والشَّاي يُشْرَبُ ، ابحثْ في هذا الرَّجُل ما يُمكن أنْ شربه .

ويُمكن تفكيك اسم سارة إلى « سار » و « هـ » ، ومعنى سار من السَّيْر . . . إلخ .

ويُمكن ربط الاسم بالمكان الذي تعارفت فيه عليه ، أو بكلمةٍ إنجليزيَّةٍ ، أو اسم سيَّارةٍ ، أو أحد المشَاهير .

خيالٌ مُفَرِّقٌ :

إذا كُنْتَ من أهلِ التَّخَيُّل الشَّديد ، فإنَّ أمر الرَّبْط والمعنى سيُسهِّل عليك كثيرًا ، فمثلاً :

رجلٌ اسمه كمال ، وشفتاه رفيعتان ، قد يقودك خيالُكَ لربطِ وفكٍّ وجمعٍ للمعاني ، فتصل إلى حَلٍّ عجيبٍ ، كأنْ تصل إلى أنَّ هناك رجُلَين يجْلِسان على

كرسيَّين فوق الشَّفتين يتناقشان ، فلو مَرَّتْ عَشْرُ سنوات ، وشاهدْتَ الرَّجُلَ ، ووقَعَتْ عيناكَ علَى شَفَتَيْهِ الرَّفيعتين ، تشعر وكأنَّكَ تُشاهد الرَّجلين على الكرسيَّين يتناقشان ، فتقول : أهلاً أخ كمال .

ولو سألتَ أكْثَرَ النَّاس : لماذا لا يتذكَّرونَ الأسماءَ ؟ لانتحلوا لأنفسهم العُذْرَ بكَثْرَة المشاغِلِ ، ولكنَّهم ليسوا أكثرَ انشغالاً من نبيِّنا محمَّد ﷺ ، فقد كان يحفظ أسماء أصحابه ، وكُناهم ، وأسماء صِغَارهم ، وكُلّ مَنْ تعارَفَ عليه في الجاهليَّةِ ، وربَّما عرف صفة الرَّجل ، وسمع به ، فإذا التقى به قالَ : أنت فلانٌ ؟ ، فيكون الأمرُ كما ذكرَ ! .

ومن اللَّطائف أنَّ نابليون الثالث - إمبراطور فرنسا ، وابن عَمِّ نابليون الشَّهير يُباهي بأنَّهُ - على الرغم من واجبات المُلْكِ الملقاة على عاتِقِهِ - يستطيع أنْ يذكُرَ اسم كُلِّ شَخْصٍ التقى به .

فماذا كانت خُطَّته ؟ .

غايةً في البساطة ، كان إذا لم يسمعْ اسم محدِّثه واضحًا ، قال له : آسف لم أستطعْ أنْ ألتَقِطَ الاسم تمامًا ، فإذا كان في الاسم شيءٌ من الغرابة ، سألَ : كيف يتهجَّى ؟ ، ثُمَّ يأخُذْ على عاتِقِهِ - خلال المناقَشَة - أن يُكَرِّر الاسم جملَة مرَّاتٍ ، ويُحاول أن يربطه في ذهنه بصورةِ صاحبه ، وملامحه ، وتعبيراته ، ومظهره العامِّ ، وإذا كان الرَّجُلُ علَى قَدْرٍ من الأهميَّة ، قام نابليون - فضلاً عن هَذَا - بعَمَلٍ شاقٍّ آخر ، فمتى خلا لنفسه كان يُدَوِّنُ الاسم على قرطاسٍ ، ثُمَّ يتأمَّلُهُ مليّاً ويُحضر ذهنه فيه ، وبهذا يُكَوِّنُ فكرةً (عينيَّةً) عن الاسم ، كما كَوَّنَ فكرةً (سمعيَّةً) ، فلا يكون هناك ثمَّة سبيلٌ لنسيانه ! [١] .

---

(١) « كيف تكسب الأصدقاء ؟ » (ص٥٦) .

لا تستخدم لفظة « أنا » وما في معناها

أخي المحاور ، إنَّه يَجْمُلُ بك عدمُ استخدام لفظ « أنا » ؛ فهو - كما يُقال- لفظٌ نصْفُ بلاءِ العالم منه ؛ لما يدلُّ عليه من كثيرٍ من المخلوقين من دَعْوى عريضةٍ ، وكذبٍ أعْرَضَ، ونحوه مثل : لي، وعندي ، وغيرهما [١] .

وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله - : « وَلْيَحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ من طُغْيَانِ أنا ، ولي ، ووعندي ؛ فإنَّ هذه الألفاظ الثَّلاثة ابْتُلِيَ بها إبليسُ ، وفرْعَونُ ، وقارونُ: فـ ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] لإبليس ، و﴿ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٥١] لفرعون ، و﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] لقارونَ .

وأَحْسَنُ ما وُضِعَتْ « أنا » في قولِ العَبْد : أنا العبدُ المذنبُ المخطئ المستغْفرُ المعترفُ ، ونحوه ، و« لي » في قوله : لي الذَّنْبُ ، وليَ الجُرْمُ ، وليَ المَسْكَنَةُ، وليَ الفَقْرُ ، والذُّلُّ ، و« عندي » في قولـه : اغفرْ لي جِدِّي وَهَزْلي ، وخَطَئِي وَعَمْدي ، وكُلُّ ذلك عندي » [٢] .

وقال ابنُ العربيِّ الحاتميُّ الحلوليُّ: « الصُّوفيُّ مَنْ أَسْقَطَ الياءاتِ الثَّلاثَ ، فلا يقول : لي ، ولا عندي ، ولا متاعي : أي لا يُضيف لنفسه شيئًا » [٣] .

---

(١) « مُعْجَمُ المناهي اللَّفظيَّة » (ص ١٥٠) .
(٢) « زاد المعاد » (٢/ ٤٧٥) .
(٣) « شذرات الذَّهب » (٥/ ١٩٩) .

حُسْنُ الاستماع

أخي الحبيب ، اعلمْ - علَّمني اللهُ وإيَّاك ، وجَعَلَ الجنَّةَ مُنتَهَى مَسْعَايَ ومَسْعَاكَ - أنَّ مِنْ أَدَبِ المروءَةِ حُسنَ إصْغَاءِ الرَّجُلِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ من الإخوان ، فإنَّ إقباله على مُحَدِّثه بالإصغاء إليه بالأُذُن ، وَطَرْفِ العين ، وحضورِ القلبِ ، وإشراقة الوَجْهِ يدلُّ على ارتياحِهِ لمجالسته ، وأُنْسِه بحديثه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لجليسي عليَّ ثلاثٌ : أنْ أُرْمِيَهُ بطَرْفي إذَا أَقْبَلَ ، وأنْ أُوَسِّعَ له في المَجْلِسِ إذا جلسَ ، وأَنْ أُصْغِيَ إليه إذا تَحَدَّثَ » (١) .

وقال عَمْرُو بْنُ العاص رضي الله عنه : « ثلاثةٌ لا أَمَلُّهُمْ : جَلِيسي ما فَهِمَ عَنِّي ، وثوبي ما سترني ، ودابَّتي ما حَمَلَتْ رَحْلي (٢) » (٣) .

وقال الحَسَنُ البصريُّ : « إذا جالستَ فكُنْ على أنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ منك على أنَّ تقولَ ، وتعلَّمْ حُسنَ الاستماعِ ، كما تتعلَّمُ حُسْنَ القَوْلِ ، ولا تَقْطَعْ على أَحَدٍ حَدِيثَهُ » (٤) .

وقال مُعاذ بْنُ سَعْدٍ الأعورُ : « كُنْتُ جالسًا عند عطاء بن أبي رباحٍ ، فَحَدَّثَ رجلٌ بحديثٍ ، فعرَّضَ رجلٌ من القَوْمِ في حديثه ، قال : فغَضِبَ ، وقال : ما هذه الطِّباع ؟! ، إنِّي لأَسْمَعُ الحديثَ من الرَّجُلِ وأنا أَعْلَمُ به ، فأُرِيهِ كأنِّي لا أُحْسِنُ شَيْئًا » (٥) .

---

(١) « عيون الأخبار » (١/ ٣٠٧) .

(٢) **الرَّحْل** : ما يُوضع من غطاء على ظهر الجَمَلِ للرُّكوب ، مثل السَّرْجِ للفَرَس ، والإكاف والبرذعة للحمار ، وجمع رَحْلٍ رِحَالٌ .

(٣) « عيون الأخبار » (١/ ٣٠٦) .

(٤) « المنتقى » (ص٧٢) .

(٥) « روضة العقلاء » (ص٧٢) .

وقال المدائني: « أوصى خالد بن يحيى ابنه ، فقال : « يا بُنَيَّ ، إذَا حدَّثكَ جليسُكَ حديثًا فَأَقْبِلْ عليه ، وأَصْغِ إِلَيْهِ ، ولا تَقُلْ : قَدْ سَمِعتُهُ ، وإنْ كنتَ أَحْفَظَ منه ؛ فإنَّ ذلك يُكْسِبُكَ المحبَّة والميلَ إليك » (١) .

وقال إبراهيم بن الجنيد: قال حكيمٌ لابنه : « يا بُنَيَّ ، تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمْ حُسْنَ الكلام ، فإنَّ حُسْنَ الاستماع إمهالُك المتكلِّمَ حتَّى يُفْضيَ إليك بحديثه ، والإقبالُ بالوَجْهِ والنَّظَر ، وتركُ المشاركة بحديث أنتَ تعرفُهُ » (٢) .

وقال ابن المقفع: « إذا رأيتَ رجلاً يُحَدِّثُ حديثًا قدْ عَلِمْتَهُ ، أو يُخْبِرُ خبرًا قد سمعتَه ، فلا تُشاركْ فيه ، ولا تتعقَّبْهُ عليه حِرْصًا على أن يَعْلَمَ النَّاسُ أنَّكَ قَدْ علمتَهُ ؛ فإنَّ ذلك خِفَّةٌ ، وسُوْءُ أدَبٍ وسَخفٌ » (٣) .

وقال أيضا: « من الأخْلاق التي أنت جديرٌ بتركها إذا حدَّثَ الرجلُ حديثًا تعرفهُ ألاَّ تُسابقَهُ ، وتفتحَهُ عليه وتُشاركَهُ ، حتَّى كأنَّكَ تُظْهِرُ للنَّاسِ أنَّك تريدُ أنْ يعلموا أنَّكَ تعْلمُ مِثلَ الذي يعلمُ ، وما عليك إلاَّ أنْ تُهَنِّئَهُ بذلك ، وتُفْرِدَهُ به ، وهذا الباب من أبواب البُخْلِ ، وأبوابُهُ الغامضةُ كثيرةٌ » (٤) .

وأنشد الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تُشارِكْ في الحديثِ أَهْلَهُ ... وإنْ عَرَفْتَ أصْلَهُ وفَرْعَهُ

فَعَليكَ - أخي الحبيب - أن تُحسِنَ الاستماعَ لمُحاورك ؛ حتَّى يستكملَ حُجَجَهُ وبَرَاهينَهُ ، وإنْ كانَ ما تَسْمَعه منه شبه الوسواس ، فإنْ كان فيه حقٌّ استخلصْهُ ، ثُمَّ استفدْ منه ، وإن كان فيه خطأٌ ، استخرَجْ جُذُورَهُ ودافِعَهُ ، والشُّبُهات التي أَدَّتْ إليه .

---

(١) « بهجة المجالس » لابن عبد البرّ .

(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٣٢) .

(٣) « الأدب الصَّغير والكبير » (...) .

(٤) المرجع السابق (...) .

قال الخطيبُ البغداديُ في ذكر أدبِ الجدلِ والمناظرة : « وإذا وَقَعَ له شيءٌ في أوَّلِ كلامِ الخَصْمِ ، فلا يَعْجَلْ بالحُكم عليه ؛ فربَّما كان في آخر كلامه ما يُبيِّنُ أنَّ الغرضَ بخلافِ الواقعِ له ، فينبغي أنْ يتثبَّتَ إلى أنْ يَنْقَضِيَ الكلامُ ، وبهذا أدَّبَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه : ١١٤] ، ويكون نُطْقُهُ بِعِلْمٍ ، وإنصاتُهُ بِحِلْمٍ ، ولا يعجل إلى جوابٍ ، ولا يهجم على سؤالٍ ، يحفظ لسانَهُ من إطلاقه بما لا يعلمُ ، ومن مناظرته فيما لا يفهمُ ؛ فإنَّه ربَّما أخرجه ذلك إلى الخَجَلِ والانقطاعِ » .

ثمَّ قال : « وينبغي أنْ يكونَ كُلُّ واحدٍ من الخَصْمَيْنِ مُقْبلاً على صاحبه بوجهِهِ في حالِ مُناظرته ، مُستمعًا كلامه إلى أن يُنْهِيَهُ ؛ فإنَّ ذلك طريقُ معرفته ، والوقوفِ على حقيقته ، وربَّما كان في كلامه ما يدلُّ على فسادِهِ ، ويُنبِّهُ عواره ، فيكون ذَلك معونةً له على جوابه » .

إلى أن قال : « وَلْيَتَّقِ المناظرُ مُداخَلَةَ خَصْمِهِ في كلامِهِ ، وتقطيعَهُ عليه ، وإظهارَ التَّعَجُّبِ منه ، ولْيُمكِّنْهُ من إيرادِ حُجَّتِهِ ؛ فإنَّما يفعلُ ذلك المبطلون ، والضُّعفاءُ الَّذين لا يحصلون » [١] .

وقال إمامُ الحرمين الجوينيُ في آدابِ المجادل : « وعليهما جميعًا أنْ يصبرَ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبِهِ في نَوْبَتِهِ ، وإنْ كان ما يسمعه منه شبه الوسواس ؛ لأنَّهما متساويان في حقِّ المناوبَة ، ومن لمْ يصبرْ منهما لصاحبه ، فقد قطَعَ عليه حقَّهُ ، ومتى لم يصبرْ عليه خَصْمُهُ ، بل داخلَهُ بالاعتراضِ ، أو الجوابِ في نَوْبَتِهِ احْتمله ووعظه ، فإنْ أصرَّ عليه قطَعَ مُكالَمَته » .

---

(١) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٣١-٣٥) .

ثُمَّ قال : « وعلى كُلٍّ منهما أنْ يُقبلَ على خَصْمِه الذي يُكَلِّمُهُ بوجهِهِ في خطابِهِ ، المُتكَلِّمُ في كلامه ، والمستمع في استماعه ، فإن التفتَ أو أعْرَضَ عنه في الاستماع أو الخطاب وَعَظَهُ ، فإنْ لم يقبلْ قَطَعَ مُناظَرتَهُ ؛ لأنَّ تركَ الإقبال ، وحُسْنِ الاستماعِ يشغَلُ قَلْبَ المتكلِّمِ والمستمع ، فتنقَطِع عليه مادَّةُ الفَهْمِ والخاطر» (١) .

وقد تجد محاورك يتحدَّثُ وفي كلامه ما ينبغي أنْ يُستَدْرَكَ عَلَيْه ، ويُراجَعَ فيه تعليقًا وتصحيحًا ، فمن الأفضل أنْ يكونَ لديكَ قَلَمٌ وورقَةٌ ، تُسَجِّلُ عليه ما تَوَدُّ تسجيله ، حتَّى إذا جاء دَوْرُكَ أفْضَيْتَ بما لديك حسبَ موقع ورودها .

ومن اللّطائف :

أنَّ عبد الملك بن مروان استأذنَ على أمير المؤمنين معاوية في الدُّخول ، فأذنَ له ، ثُمَّ سَلَّمَ عليه وجَلَسَ ، وبعدَ أنْ فَرَغَ من حديثه قام وانصرفَ ، فقال مُعاوية : « مَا أكْمَلَ أدَبَ هذَا الفَتَى ! » ، فقال بعضُ الحاضرين : « نَعَمْ يا أمير المؤمنين ، لقدْ أخَذَ بأخلاقٍ أربعة ، وتركَ أخلاقًا أربعةً : أخَذَ بأحْسنِ البِشْرِ (٢) إذا لَقِيَ ، وبأحْسَنِ الحديثِ إذا حدَّثَ ، وبأحْسَنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ ، وبأحسَنِ الوفاءِ إذا وَعَدَ ، وتركَ مزَاحَ مَنْ لا يثقُ بعَقْلِه ، وتركَ مُجالسةَ مَنْ لا يرجعُ إلى الحقِّ ، وتركَ مُخالطَةَ مَنْ لا أدَبَ عنده ، وتركَ من القَوْلِ والعملِ كُلَّ ما يعتذر منه » (٣) .

قال الشاعر :

إنْ أنْتَ جَالَسْتَ الرِّجالَ ذوي النُّهَى ... فاجْلِسْ إلَيْهِمْ بالكمالِ مُؤَدَّبا
واسمَعْ حَديثَهم إذَا هُمْ حَدَّثُوا ... واجْعَلْ حديثَكَ -إنْ نَطَقْتَ- مُهَذَّبا (٤)

---

(١) « الكافية في الجدل » (ص٥٣٣- ٥٣٤) .
(٢) البِشْر : الفرح والبَشَاشة .
(٣) « عيون الأخبار » (١/ ٣٠٧) .
(٤) المرجع السَّابق (١/ ٣٠٧) .

الحوارُ الصَّامت (١)

قد يكون الحوار الصَّامت أدقَّ وأصدقَ في التَّعبيرِ من الكلامِ ، وقديمًا قال العربُ : « رُبَّ إشارةٍ أَبْلَغُ من عبارةٍ » .

والحوارُ الصَّامت قد يكونُ بالعيونِ ، وقدْ يكون باليدينِ ، وقد يكون بقسماتِ الوجْه ، وقد يكون بحركاتِ الكَتَفيْنِ ، أو الرِّجْلَيْن ، أو الرَّأس ، وإليك شيئًا من التَّفصيلِ :

[١] لُغَة العُيُونِ :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب : ١٩] .

ورحِمَ اللهُ ابن القيِّم القائل : « إنَّ العُيُونَ مغاريفُ القلوبِ ، بها يُعْرَفُ ما في القلوبِ ، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحبُها » .

والعيون ليست وسيلةً فقط لرؤية الخَارِج ، بلْ هي وسيلَةٌ بليغَةٌ في التَّعبيرِ عمَّا في الدَّاخلِ (أي ما في النّفوسِ والقلوبِ ونقله للخارِج) فهناكَ النَّظَراتُ القَلقَةُ المضطربَةُ ، وغيرها المستغيثةُ المهزومةُ المستسلمةُ ، وأُخْرى حاقدَةٌ ثائرَةٌ ، وأُخْرَى ساخِرَةٌ ، وأُخْرَى مُصَمِّمَةٌ ، وأُخْرَى سارِحَةٌ لا مُبالية ، وأُخْرَى مُسْتَفْهِمَةٌ ، وأُخْرى محبَّةٌ . . . وهكذَا تَتَعدَّدُ النَّظَرَاتُ المعبِّرَة ، وقد سَمَّى الله سبحانه وتعالى بعض النَّظَرات بـ « خائنَةِ الأَعْيُنِ » .

والمُحاورُ في حوارِهِ مع لُغَةِ العيونِ يتعامل معها كوسيلة تعبيرٍ عمَّا في نفسه للآخرين .

---

(١) استفدتُ هذا المبحث من كتاب « حتَّى لا تكونَ كَلاًّ » بتصرُّفٍ يسيرٍ .

قال الشاعرُ:

إنَّ العُيُونَ لَتُبْدِي في نَوَاظِرِها ... ما في القُلُوبِ مِنَ البَغْضاءِ والإِحَنِ [١]

وقال آخرُ:

وما أحبّ إذَا أَحْبَبْتَ مُكْتَتِمًا ... يُبْدِي العَدَاوَةَ أَحْيَانًا ويُخْفِيهَا
تَظَلُّ في قلبِه البَغْضَاءُ كَامنَةً ... فالقَلْبُ يكْتُمُها والعَيْنُ تُبْدِيها
والنَّفْسُ في عَيْنَيْ مُحَدِّثِها ... مَنْ كَانَ مِنْ سِلْمِها أَو مِنْ أَعَادِيها
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنِي مِنْكَ عَلَى ... أَشْيَاءَ لَولاهما ما كُنْتُ أَدْرِيها [٢]

وقال آخرُ:

تُرِيكَ أَعْيُنُهُمْ ما في صُدُورِهِم ... إنَّ العُيُونَ يُؤَدِّي سِرَّهَا النَّظَرُ [٣]

وإذا أردْتَ إيصالَ مُرادِك بعينيك ، فاحرصْ علي الأمورِ الآتيَة :

[١] أنْ تكونَ عيناكَ مرتاحتين أثناءَ الكلام ، ممَّا يُشْعِرُ الآخر بالاطمئنان إليك، والثِّقَة في سلامة موقفك ، وصحَّة أفكارك .

[٢] تحدَّثْ إليه ورأسُكَ مُرْتَفِعٌ إلى الأعلى ؛ لأنَّ طَأْطَأَةَ الرَّأسِ أثناءَ الحوار يُشْعِرُ بالهزيمة والضَّعْف والخَوْر .

[٣] لا تَنْظُرْ بعيدًا عن مُحاورك ، أو تُثْبِتْ نَظَرَكَ في السَّماء أو الأرضِ أثناءَ الحوار ؛ لأنَّ ذلك يُشْعِرُ باللاَّمُبالاة بِمَنْ تتحاورُ معه ، أو بِعَدَمِ الاهتمامِ بالموضوعِ الذي تتحاورَ فيه .

[٤] لا تُطِلْ التَّحْدِيق بشكْلٍ مُحْرِجٍ فيمَنْ تتحاورُ معه .

---

(١) **الإِحَنْ** : الأحْقاد ، مفردها إِحْنَةٌ .
(٢) « روضة العقلاء » (ص١٠٧) .
(٣) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٦٤) .

{ ٥ } احذرْ مِنْ كَـثْرَةِ الرمش بعـينيكَ أثناء الحوار مع غـيرك ؛ لأنَّ هذا يُشْـعِرُ بالقلقِ والاضطرابِ .

{ ٦ } ابتعدْ عَنْ لبس النَّظَّارات القاتمة أثناء الحوار مع غيرك ؛ لأنَّ ذلك يُعيقُ بناءَ الثِّقَةِ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ .

{ ٧ } احذَرْ من النَّظَرَات السَّاخرة الباهتة إلى مَنْ يُحاورك أو تُحاورُهُ ؛ لأنَّ ذلك يَنْسفُ جُسُور التَّفاهُمِ والثِّقَة بينـك وبينه ، ولا يُشَجِّعُهُ على الاستمرار في التَّواصُلِ معك ، وَرُبَّ نَظْرَةٍ أَوْرَثَتْ حَسْرَةً ! .

كيف تفهمُ ما في نفوسِ الآخرين من خلال نظرات عُيُونهم ؟! .

لقد قـام عُلماءُ النَّفْسِ بالكثـير من التَّجـارِبِ للوصولِ إلى معـرِفَةِ دلالاتِ حركـاتِ العُيون عـمَّا في النُّفوسِ ، وكـان ممَّا وصلوا إليه - كـما ذكرَ الدُّكـتور محمَّـد التَّكريتيُّ في كتابه « آفاقٌ بلا حُدود » - أنَّ النَّـظَرَ أثناءَ الكلام إلى جهة الأعلى لليـسار يعني أنَّ الإنسان يُعَـبِّرُ عن صـورٍ داخليَّةٍ في الذَّاكـرة ، وإنْ كان يتكلَّمُ وعَيْناهُ تزيغان لجهة اليمين إلى الأعلى ، هو يُنْشئُ صورًا داخليَّةً ويُركِّبُها ، ولم يَسْبقْ له أنْ رآها ، أمَّا إنْ كـانتْ عَيْناهُ تتَّجهان لجـهةِ اليسار مُباشـرةً ، فهو يستذكر كلامًـا سَبَقَ وأنْ سَمِعَهُ ، فإنْ كان نَظَرُهُ لِجهَةِ اليمين مُـباشرةً فهو يُنشِئُ كلامًا لم يسـبقْ أنْ سمعهُ ، وإنْ نَظَرَ لِجهَـةِ اليمين للأسفل ، فهـو يتحدَّثُ عن إحْساسٍ داخليٍّ ، ومـشاعِرَ داخليَّةٍ ، وإنْ نَظَرَ لجـهة اليسارِ من الأسـفلِ ، فهو يستـمعُ إلى نفسِهِ ، ويُحَـدِّثُها في داخلِهِ ، كَمَنْ يقـرأُ مع نفسه مـثلاً ، هذا في حالَةِ الإنسان العاديِّ ، أمَّا الإنسانُ الأعسر فهو عكس ما ذكرنا تمامًا .

وبناءً على هذه المعلومات يُمكنك - أخي المحاور - أنْ تُحَدِّد من أيِّ الأنماطِ يتحدَّثُ محاورك وهو يتحدَّثُ مـعك ، بل ويُمكنك من قراءة قصيدةٍ ، أو قطْعَةٍ نثريَّةٍ أنْ تُحَدِّدَ النَّمطَ الَّذي كـان يَعيشُهُ صاحبُهـا عند إعداده لها ، هل هو النَّمط

السَّمْعيُّ ، أو الصُّوريُّ من الذَّاكِرَة ، أو ممَّا يُنْشِئُهُ ، أو من الأحاسيس الدَّاخليَّة ؟ وذلك من خلال تأمُّل كلامه ، وتصنيفه في أحد الأصناف السَّابقة .

ولله دَرُّ ابن الأعرابيِّ حين قال :

العَيْنُ تُبْدِي الَّذي في نَفْسِ صاحِبِها ... مِنَ الشَّنَاءَة [1] أو وُدٍّ إذا كَانَا

إنَّ البَغيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ بها ... لا يستطيعُ لما في الصَّدْرِ كِتْمَانا

العَيْنُ تَنْطِقُ والأفْواهُ ساكِتَةٌ ... حتَّى تَرَى مِنَ ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيانا [2]

[٢] الحوار بالوَجْه :

كما يستطيع الإنسان أن يُعَبِّرَ بعَيْنيه عمَّا يُريدُ ، ويستطيع أنْ يستكْشِفَ ما في نفوسِ الآخرين من خلال التَّأمُّلِ في نظراتِ عيونهم ، فإنَّه يستطيعُ - أيضًا - أنْ يفعلَ ذلك من خلال تأمُّلِ قَسَمَاتِ الوَجْه ، سواءٌ أكان ذلك من بَشَرَةِ الوَجْه ، أو شكْلِ الشَّفَتين ، أو حال الخَدَّين ، أو الجَبِين ، وتأمَّلْ معي قليلاً هذه الآيات الكريمة :

قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾ [النَّحْل : ٥٨] .

وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ [الحَجّ : ٧٢] .

وقال : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يُونُس : ٢٧] .

وعَلَيْهِ فاعلَمْ - علَّمَني اللهُ وإيَّاك - أنَّ التجهُّمَ والعُبُوسَ يُقيمان الحواجزَ بينك وبين الآخرين ؛ ولذَلك عليك أن تتعلَّمَ كيفَ تُسيْطِرُ على أفكارك ومشاعرك ؛ ليكون عبُوسُكَ حينئذٍ مقصورًا ومُتَحكِّمًا فيه ، ويُؤدِّي رسالةً مُحَدَّدةً

---

(١) **الشَّناءة** : البُغْض والكَرَاهيَة .

(٢) « روضة العقلاء » (ص١٠٤) .

في وقتها المناسب .

وأكثرُ مظاهرَ التَّجهُّم هو تقطيب الجَبينِ ، وفلطَحَة الخَدَّيْنِ ، وتكشير الأسنان ، بالإضافة إلى لزم الشَّفَتين ، وتقوُّس السُّفلى منهما مع جفافهما ، واسوداد البَشَرَة .

وأخيراً لكى تكون مُحاوراً ناجحًا اتَّبعْ الطَّريقة الآتية :

{ ١ } اجعل الابتسامَةَ رسولك إلى قُلوبِ الآخرينَ ، فهي مفتاحٌ لأبوابِ النفوسِ، كما أنَّها تجلب الرَّاحةَ والهُدُوءِ للمُبْتَسِمِ .

{ ٢ } عندما تشعر أنَّ الآذان قد أُغْلقَتْ أمَامَكَ ، وتعطَّلَ استقبال حوارك ، فَعَطِّرِ الجوَّ بنُكْتَةٍ (*)، يتلوها ابتسامَةٌ .

{ ٣ } حَذَارِ من الابتسامَةِ السَّاخِرَةِ أو الباردَةِ ؛ فهي تَحُولُ بين الآخرين وبين الثِّقَة فيك .

{ ٤ } حاول التَّعرُّف على ما في نفسِ الآخر من خلالِ رَصْدِ ابتسامته ، ومُلاحَظَة جَبينه ، وحركات عَينيه .

{ ٥ } حاولْ أنْ تُعَوِّدَ نفسكَ على أنْ تكونَ ابتسامتك وسيلةً لإبلاغِ حوارك كما تُريدُ ، وإنْ كانت مشاعرُكَ خلافَ ذلك .

{ ٦ } عَوِّدْ نفسَكَ على الاستمتاعِ بالطَّرائفِ المُضحكة ؛ لتتعوَّد على الضَّحْكِ أحيانًا .

[٣] الحوارُ بأعْضَاءِ الجَسَدِ الأُخْرى :

كما أنَّ الوَجْهَ يُعَبِّرُ عمَّا في النَّفْسِ ، فإنَّ حركات اليدين ، والقدمين ، وحركات الكتفين ، وكيفيَّة الجُلوسِ أو المشي تُعَبِّرُ عمَّا في نفسِ الإنسانِ ،

(*) واحذرْ ألا تنطق إلا صدقًا ، فإن في هذا مزلق خطير .

وتُعْطي تقريرًا دقيقًا عن حالته النَّفسيَّة .

ومن صورِ التَّعبيرِ باليدين الآتي :

{ ١ } عندما تُلاحظُ إنسانًا وضع يديه وراءَ ظَهْرِهِ مُتشابكين ، فهذا يعني شُعُورَه بالعَجْزِ ، أو عَدَمَ الثِّقَة بالآخرين .

{ ٢ } أمَّا عندما يضع الإنسانُ يديه مُتشابكتين أمامَهُ أثناءَ الجلوسِ ، فهذا يعني شعورَهُ بالثِّقَةِ المفرطَةِ في النَّفسِ ، واللاَّمُبالاةَ بالآخرين .

{ ٣ } إشارة اليدين والأصابع المتوافقة مع الكلامِ تزيدُ الكلام وضُوحًا ، وكما قالت العربُ : « رُبَّ إشارةٍ أَبْلَغُ من عبارةٍ » .

{ ٤ } لاحِظْ حركات أقْدام الآخرين أثناءَ الحوار معهم ؛ فهي تُعَبِّرُ عمَّا في نُفوسهم ، وتَحكَّم أنت في حركات قدميك أثناءَ حوارك ، ما لم تُقَرِّرْ إرسالَ رسالةٍ من خلال هذه الحركة .

{ ٥ } هَزُّ الكتفين للأعلى بصورةٍ سريعَةٍ يعني التَّجاهُلَ واللاَّمُبالاةَ ، أو الجَهْلَ بالشَيْءِ والحيرةَ حِيَالَهُ .

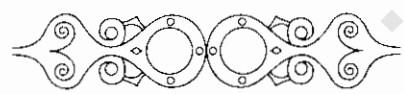

obeikandi.com

محاورة الصغار

الأطفال نعمة امتنَّ اللهُ بها علينا ، فهم زينة الحياة الدُّنيا ، ولابُدَّ لنا أنْ نهتمَّ بهم ، ونُشاركهم أفكارهم ومشاعرهم ، ونُصَوِّب لهم الأفكار الحسنة .

قال سابق البربري:

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحْدَاثَ في مَهَلٍ ... وليسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الكِبْرَةِ الأَدَبُ
إنَّ الغُصُونَ إذَا قَوَّمْتَها اعتَدَلَتْ ... وَلَنْ تَلِينَ ـ إذَا قوَّمْتَها ـ الخَشَبُ (١)

اعلم - أخي باركَ اللهُ فيك - أنَّ لمحاورة المربِّي صغارَهُ فائدَةً عُظْمَى ، وللحوارِ الهادئ معهم أهميَّةً كُبْرَى ، ولتعليمهم آدابُ الحوار وطرائقه وأساليبه ثمرات جُلَّى ، فبذلك ينمو عقلُ الصَّغير ، وتتَّسعُ مداركُهُ ، ويزداد رغبةً في الكشْفِ عن حقائق الأمور ، ومُجْرَيات الأحداث ، كما أنَّ ذلك يُكْسبه الثِّقَة بنفسه ، ويُورِّثُهُ الجُرْأَةَ والشَّجاعة الأدبيَّة ، ويُشْعره بالسَّعادَة والطُّمَأْنينة ، والقوَّة والاعتبار ، ممَّا يُعِدُّه للبناءِ والعطاءِ ، ويُؤَهِّلُهُ لأن يعيش كريمًا شجاعًا ، صريحًا في حديثه ، جريئًا في طرحِ آرائه .

أثْبَتَتْ دراسَةٌ بريطانيَّةٌ حديثةٌ أنَّ الآباء الذين يُخَصِّصون خمسَ دقائق - على الأقلِّ - يومياً للحوار مع أبنائهم - يتمتَّعُ أبناؤهم في المستقبل بدرجةٍ كبيرةٍ من الثِّقَة بالنَّفسِ ، والقُدْرَة على الابتكارِ والإبداعِ ، وبذلك فهم يكونون من أفضَل الرِّجال في المجتمعِ .

أُجْرِيَتِ الدِّراسَة في جامعة أوكسفورد على (١٥٠٠) شخصٍ ، تتراوح أعمارهم بين (١٣ - ١٩) عامًا ، وقد أثبتت الدِّراسة أنَّ الأبناء الذين لا

---

(١) « جامع بيان العلم » (١/٨٣) .

يتحاورون مع آبائهم هم الأقلُّ ثقةً بالنَّفسِ [١] .

ومما ينشد لخلف الأحمر :

خَيْرُ مَا ورَّثَ الرِّجَالُ بَيْنَهُمْ ... أَدَبٌ صَالِحٌ وحُسْنٌ ثَنَاء

هُوَ خَيْرٌ من الدَّنانيرِ والأَوْ ... راقِ [٢] في يومِ شِدَّةٍ ورَخَاء

تِلْكَ تَفْنَى والدِّينُ والأَدَبُ الصَّا ... لِحُ لا يَفْنَيَانِ حَتَّى اللِّقَاء [٣]

إِنْ تَأَدَّبْتَ -يا بُنَيَّ - صَغِيرًا ... كُنْتَ يَوْمًا تُعَدُّ في الكُبَراء

وَإِذَا مَا أَضَعْتَ نَفْسَكَ أَلْفَيْـ ... ـتَ كَبِيرًا في زَمْرَةِ الغَوْغَاء

لَيْسَ عَطْفِي للعُودِ إِنْ كَانَ رَطْبًا ... وَإِذَا كَانَ يَابِسًا بِسَوَاء [٤]

ومع أَهميَّة هذا الأمر وعظيم فائدته إلاَّ أنَّ هناك تَقْصيرًا كبيرًا فيه ، فكثيرٌ من النَّاس لا يَأْبَهُ لمحاورة الصِّغار ، ولا يُلْقي بالاً لتعليمهم آداب الحوار وأساليبه ، تراه لا يُصْغي إليهم إذا تحدَّثوا ، ولا يُجيبُ على أسئلَتهم إذا سألوا ، بل ربَّما كذَّبهم إذا أخبروا ، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلَّموا ، وهذا من الخَلَلِ الفادحِ ، والتَّقصيرِ الكبير .

فهذا الصَّنيع ممَّا يُؤكِّدُ الخوفَ في نفسِ الصَّغير ، كما يُورثه التَّردُّدَ ، والخَجَلَ الشَّديدَ ، وفقدانَ الثِّقَة بالنَّفْسِ ، بل قد يجرُّ عليه أضرارًا تُؤَثِّرُ على مُستَقْبَلِه ومسيرةِ حياتِه ، فقد يعجز عن الكلام ، وقد يُصاب بعُيُوبِ النُّطْقِ : مِنْ فَأْفَأَة ، وتَمْتَمَة ، ونحوها ، وقد يُصاب بمرضٍ آخر ، وقد يُعاني من مشكلة فيزداد مرضُهُ ، وتتضاعف مشكلاته بسبب عجزه عن الإخبار عمَّا أصابه وألمَّ

---

(١) مجلَّة الأسرة العدد (٧٠) ، ٢٠ محرَّم ١٤٢٠ هـ (ص٧٤) .

(٢) **الأوراق** : جمع ورق - مثلثة - وهي الدَّراهم المضروبة من الفضَّة .

(٣) **يوم اللِّقَاءَ** : أي يوم لقاء الله ، وهو يوم القيامة .

(٤) « جواهر الأدب » (ص٧٠٦ - ٧٠٧) .

به، وقد يُظْلم وتتوجَّهُ له تُهْمَةٌ ، فيُؤْخَذ بها مع أنَّه بريءٌ منها لعجزِه عن الدِّفاع عن نفسِه ، وعن نفي ما عُلِّقَ وأُلْصِقَ به ، وقد تضطرُّهُ الحالُ لأنْ يتكلَّمَ أمام زُملائه ، فيرى أنَّ الألفاظَ لا تُسْعِفُهُ ، فيشعر بالنَّقْصِ خصوصًا إذا وجَدَ مَنْ يسْخَرُ منه (١) .

قال أبو عبد الله نفطويه عن نفسه :

أَرَاني أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ في الكِبَرِ ... وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ في الصِّغَرْ
وما العِلْمُ إلاَّ بالتَّعَلُّمِ في الصِّبَا ... ومَا الحِلْمُ إلاَّ بالتَّحَلُّمِ في الكِبَرْ
وَلَوْ فُلِقَ القَلْبُ المُعَلَّمُ في الصِّبا ... لأُلْفِيَ فيه العِلْمُ كالنَّقْشِ في الحَجَرْ
وما العِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إلاَّ تَعَسُّفٌ ... إذَا كَلَّ(٢) قَلْبُ المَرْءِ والسَّمْعُ والبَصَرْ
ومَا المَرْءُ إلاَّ اثنانِ: عَقْلٌ ومَنْطِقٌ ... فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وهَذَا فَقَدْ دَمَرْ(٣) (٤)

فَيجْمل بك - أخي الحبيب - سُؤال صغارك واستشارتهم ؛ كي يتكلَّموا ، فتسألهم بعض الأسئلَة اليسيرة ، فتقول - على سبيل المثال - لصغيرك : مَنْ ربُّكَ ؟ ، وما دينُكَ ؟ ، ومَنْ نبيُّكَ ؟ ، أوْ أنْ تسألَهُ عَنْ بعض الأمور التي يراها ، أو يعلمها من خلال حياتِه اليوميَّة أو الدِّراسيَّة .

قال أمية بن أبي الصلت :

لا يَذْهَبَنَّ بِكَ التَّفْرِيطُ مُنْتَظِرًا ... طولُ الأَنَاةِ ولا يَطْمَعْ بك العجل
فَقَدْ يَزِيدُ السُّؤَالُ المَرْءَ تَجْرِبَةً ... ويستريحُ إلى الأَخْبارِ مَنْ يَسَل (٥)

---

(١) انظر « أخطاء في أدب المحادثة » (ص٤١-٤٤).
(٢) كَلَّ : تَعِبَ .
(٣) دَمَرَ : هَلَكَ .
(٤) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٥) .
(٥) المرجع السَّابق (١/ ٨٨) .

كذلك يجمل بك في هذا الشَّأن استشارةُ الصَّغير في بعض الأمورِ اليسيرَة مِنْ بابِ شحذ قريحته ، واستخراجِ ما لديه من أفكارٍ ، وإعانته على التَّعبيرِ عنها: كأنْ تسأله عن رأيه في أثاث المنزل ، أو لون السيَّارَة ، أو عن موعد الرِّحْلَة ، أو مكانها ، أو نحو ذلك ، ثُمَّ تُوازن بين رأي صغيرك وآراء إخوانه وزملائه ، ثُمَّ تطلبُ من كُلٍّ واحدٍ أنْ يُبْدِيَ مصوغاته ، وأسباب اختياره لهذا الرَّأي أو ذاك ، فكم في مثل هذه الأمور اليسيرة من الأثرِ العَظيم ، والثَّمرات الجليلة في تدريب الصَّغير ، وتعويد أدب الحوار .

قال الشاعر :

إنَّ الحَدَاثَةَ لا تُقصِّـ ـرُ بالفَتَى المَرْزُوْق ذهْنا
لكنْ تُذَكِّي عَقْلَهُ فَيَفُوقُ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنَّا (١)

ثُمَّ إنَّ الحوارَ مع الصِّغار يقفز بالمربِّين إلى قمَّة التَّربية والبناء ، فبسبب ذلك ينطلقُ الطِّفل ، ويستطيع التَّعْبير عن آرائه ، والمُطالبة بحقوقه ، فينشأ حُرّاً كريمًا أبيّاً ، فيكون في المستقبل ذا حضورٍ مميَّزٍ ، ويكون لآرائه صدىً في النُّفوسِ ؛ لأنَّه تربَّى مُنْذُ الصِّغَر على آداب الحوار وطرائقه ، كما أنَّ فيه تدريبًا للصِّغار على حُسْنِ الاستماع ، والقُدْرَة على ترتيب الأفكار ، ممَّا يزيدهم قربًا ومحبَّةً لوالديهم ومُربِّيهم .

هذا وقد وُجِدَ أنَّ الأطفال الأذكياء يتكلمون أسرعَ من الأطفال الأقلّ ذكاءً ، ووُجِدَ أنَّ الأطفال المحرومين عاطفيّاً ، والذين لا يُكلِّمهم آباؤهم وأمَّهاتُهم إلاَّ نادرًا أنَّهم يكونون أقلَّ قُدْرَةً على الكلامِ من الَّذينَ يُلاطفهم آباؤهم ، وليس المقصودُ فيما مضى أنْ يُسْرِفَ في إعطاءِ الحريَّة المطلقة للصغير ، فَيُلْقي له الحَبْلَ

(١) المرجع السَّابق (١/ ٨٥) .

على الغارب ، ويفتح له الباب على مصْراعَيْه ، فيسمح له بالصَّفاقَة والوقاحة ، ويَرْضَى عن تَطاوله وإساءته زاعمًا أنَّ ذلك من بابِ إعطائه الفرصةَ ، وتدريبه على الكلام ، لا ليس الأمرُ كذلك ، فالرِّضى عن سفاهته وتطاوله يُغْريه بقلَّة الأدب ، وإنَّما المقصود أنْ يُؤخذ بيده إلى الآداب المرعيَّة ، وأنْ يُدَرَّبَ على الكلامِ في حُدودِ الأدب واللَّباقة بعيدًا عن الإسفاف والصَّفاقَة [١] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

أَحْسِنْ مُحَاوَرَةَ الصَّغيرِ فَإنَّهُ ... لِيَرَاكَ قُدْوَتَهُ بِكُلِّ طَريقِ

فَإِذَا نَطَقْتَ فكُنْ مُتَوَدِّدًا ... وَإِذَا صَحِبْتَ فكُنْ أَحَنَّ صَدِيقِ

واعلمْ - أخي الحبيب - أنَّ الطِّين يُطْبَعُ وهو رطبٌ ، والغلام يُطيع مُؤَدِّبَهُ ، لكن قَلَّ مَنْ يتفطَّنُ لذلك .

قال الشاعر :

إنَّ الغُلامَ مُطِيعٌ مَنْ يُؤَدِّبُهُ ... ولا يُطِيعُكَ ذُو شَيْبٍ بتأْدِيبِ [٢]

وقال آخرُ :

يُقَوَّمُ بالشآفِ العُودُ لَدْنًا [٣] ... ولا يتقَوَّمُ العُودُ الصَّلِيبُ [٤]

قال أحدُ المربين : « قليلٌ من المربِّين هم الذين يُحاورون أفرادهم في جوانب الارتقاء بهم ، وكيفيَّة مُعالجة القُصُور لديهم ، ولهذا يجب على المربِّي أن يُشْرِكَ الفرد في علاج مشاكله ، وجوانب الضَّعْفِ فيه ، والأمور التي يجب أن يغرسها

---

(١) انظرْ « أخطاء في أدب المحادثة » (ص٤١-٤٤) ، و« تربية الأطفال في الإسلام » (ص٣٢٣) ، و« مشكلات تربويَّة » (ص٣٧-٤١) ، فقد استفدتُ منهما في هذا الباب .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٣) .

(٣) لَدْنًا : ليِّنًا .

(٤) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٣) .

في نفسه ، ويجعله شريكًا في الحوار ؛ إذ عليه مرتكز الارتقاء ، وبدونه تُصْبِح التَّربية حِبْرًا على وَرَقٍ ، لا تُقَدِّم ، وقَدْ تُؤَخِّرُ ، ويتساءل كثيرٌ من المربِّين عن سبب تأخير بعض الأفراد في التَّربية ، والإصْرار على جوانب النَّقصِ .

قد يكون أحد الأسباب هو انقطاع حَبْلِ المحاورة ، والنِّقاش العَقْلِي الهادئ بأسباب الضَّعْفِ ، وجوانب النَّقص ، فالحوار يضع الفرد أمام الأمر الواقع بصورةٍ جليلةٍ واضحةٍ ، وقد تتفتَّح الآفاق ، فيستفيد منها كلا الطَّرفين : المُرَبِّي ، والفرد » .

ولهذا كان حريًّا بالمربِّين من والدَيْنِ ومُعَلِّمين وغيرهم أنْ يُعْنُوا بهذا الجانب وأنْ يَرْعَوْهُ حقَّ رعايته ، فيحسُنُ بهم إذا خاطبهم الصِّغارُ أنْ يُقْبلوا عليهم ، وأنْ يُصْغُوا إلى حديثهم ، وأنْ يَنْأَوْا عن كُلِّ ما يُشْعِرُ باحتقار الصِّغار وازدرائهم ، كما يحسُنُ أنْ يُشْعِرَ الصَّغير بأهميَّة حديثه ، وأنْ يُظهرَ الإعجابَ والاهتمام وحُسْنَ المتابعة ، وذلك بإصدار بعض الأصوات أو الحركات التي تَنمُّ عن ذلك : كأن يقول الكبير وهو يستمع لصغيره : حَسَنٌ ، جميلٌ ، رائعٌ ، نَعَمْ ، وما إلى ذلك ، أو أن يقوم بالهَمْهَمَة ، أو تحريك الرَّأس تصعيدًا أو تصويبًا [١] .

ومن اللطائف :

أنَّ ابن الماجشون - رحمه الله - لَمَّا قَدِمَ على المنذر بن عبد الله وهو حديثُ السِّنِّ ، فلمَّا حاوره اهتزَّ إليه المُنذر دُونَ غيره ؛ لما رأى من فصاحته ، وقال له : مَنْ أنْتَ ؟ ، فقال له ابن الماجشون : عبدُ الملك بن عبد العزيز بن أبي سَلَمَةَ ، فقال : اطلبِ العِلْمَ ؛ فإنَّ معك حِذَاءَكَ وسِقَاءَكَ [٢] .

---

(١) انظرْ « أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة » (٤٢) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٦) .

فكانت تلك المقدِّمة الرَّائعة سببًا - بعد توفيق الله - في جعل ابن الماجشون أحد أعلام الدُّنيا .

قال صالح بن عبد القدُّوس :

وَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ في الصِّبا ... كالعُودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورَقًا نَاضِرًا ... بَعْدَ الذي أَبْصَرْتَ من يُبْسِهِ
والشَّيْخُ لا يَتْرُكُ أَخْلاقَهُ ... حَتَّى يُوَارَى[١] في ثَرَى[٢] رَمْسِهِ[٣]
وَإِذَا ارْعَوَى[٤] عَادَ إِلَى جَهْلِهِ ... كَذي الضَّنَى[٥] عَادَ إِلَى نَكْسِهِ[٦]

---

(١) **يُوارى** : يُغَيَّبُ شَخْصُهُ .
(٢) **الثَّرى** : التُّراب .
(٣) **الرِّمْسُ** : القبر ، جمعه أَرْماسٌ .
(٤) **ارْعَوَى** : رجعَ رجوعًا حسنًا إِلَى ما ينبغي له .
(٥) **الضَّنَى** : المرض المخامر الذي كُلَّما ظَنَّ الإِنسانُ بُرْأَهُ نكس .
(٦) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٦) .

obeikandl.com

لا تُحاور هؤلاء

ثمَّة أصناف من النَّاس لا تَحْسُن مُناظرتهم ، ولا تُجْدي مجادلتهم ، أذكر منها :

[١] الجاهل :

لا شكَّ أنَّك متى حاورت جاهلاً ، ظنَّ - لجَهْلِه - أنَّ الحقَّ معه ، وحصل له ضررٌ تكون أنت سببه .

روى الخطيبُ البغداديُّ عن أبي قلابة قال : « لا تُحَدِّث الحديثَ مَنْ لا يعرفُهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ لا يعرفُهُ يضرُّهُ ولا ينفعه » (١) .

وقال صالحُ بن عبد القدّوس - رحمه الله - :

وَإِنَّ عنَـاءً أَنْ تُفْـهِمَ جَـاهلاً ... فَيَحْسَبُ - جاهلاً - أنَّهُ منكَ أَفْهَمُ
مَـتَى يَبْلُغُ البُنْيَانُ يَـوْمًـا تمَامَـهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيـهِ وَغَـيْـرُكَ يَهْـدِمُ ؟!
مَـتَى يَنْتَـهِي عَـنْ سَـيِّئٍ مَنْ أَتَى بِهِ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْـهُ عَلَيْـهِ تَنَدُّمُ ؟! (٢)

وقال أبو الطيب :

وَمِنَ البَلِيَّـةِ عَذْلُ (٣) مَنْ لا يَرْعَوِي ... عَنْ غَـيِّهِ(٤) وخِطَابُ مَنْ لا يَفْـهَمُ

فحَـريٌّ بك - أخي المحاور - الإمـساك عن مُناظَرَةِ الجاهل ؛ فـإنَّ مناظرتَهُ وَبَالٌ بكُلِّ حالٍ .

قال أبو عليٍّ السكونيُّ : « ولا يُناظر إلاَّ أهلَ التَّقـدُّم في العلوم ؛ إذْ مَنْ ناظَرَ

---

(١) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » (٧٣٠ ، ١/ ٣٢٨) .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/ ١٠٩) .
(٣) **العَذْلُ** : الملامة .
(٤) **الغَيُّ** : الجَهْلُ والضَّلال .

مَنْ ليس بشيءٍ ، وكان خاسرًا في كلا الطَّرفين ؛ لأنَّه إنْ ظَهَرَ لم يظهر على شيءٍ ، وإنْ ظُهر عليه لا بشيءٍ » (١) .

قال أبو العباس الناشيء :

وَإِذَا بُلِيتُ بجَاهِلٍ مُتَحَامِلٍ ... يَجِدُ المحالَ مِنَ الأُمُورِ صَوَابا
أَوْلَيْتُهُ مِنِّي السُّكُوتَ ، وربَّمَا ... كَانَ السُّكُوتُ عَلَى الجوابِ جَوَابا (٢)

والجاهل إذا تعالم ، وناظَرَ غيره - لاسيَّما أهل البدع أو الكفَّار - فإنَّ عواقبه وخيمةٌ ، وشروره كبيرةٌ ، فقد يُضِلُّ نفسه ؛ لما يَرَى مِنْ قهر أولئك له ، ويكون ذلك سببًا في فتنة أولئكَ عن الدِّين القويم ؛ لظَنِّهم أنَّ ما قام به ذلك المتعالم هو غاية دين المسلمين (٣) .

وكان الولاة إذا رأَوْا جاهلاً يستشرف لمناظرةِ العلماء عَزَّروه بما يمنعه من ذلك؛ لأنَّ تجاسُرَ الجاهل على المناظرة الحامل له تهجين العالم وتنقُّصه ، لا تبيُّن الحقِّ ؛ فالجاهل لا عِلْمَ عنده يُحقُّ به حقًّا ، أو يُبْطِلُ به باطلاً (٤) .

قال زياد بن أبيه : « لا يأتيني عالم بجاهل لاحَاهُ في علمه ليهجِّنه إلاَّ عاقبته؛ فإنَّما النَّاسُ بأعلامِهم ، وذوي أسنانهم » (٥) .

وأخيرًا قال القحطانيُّ :

احْذَرْ مُجَادَلَةَ الجاهِلِ ؛ فَإِنَّها ... تَدْعُو إِلَى الشَّحْنَاءِ والشَّنَآنِ (٦) (٧)

---

(١) « عيُون المناظَرات » (ص٢٧٩) .
(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البَرِّ (٢/ ٤٣١) .
(٣) « أصول الجدل والمناظرة » (ص٢٣٢) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٢٣٣) .
(٥) « الفاضل في صفة الأدب الكامل » (ص٤٩) .
(٦) **الشَّنآن** : البُغض والكُره .
(٧) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

[٢] المُعْرِض عن الاستماع إليك :

لتكنْ عنايةُ المحاور بمراعاةِ أحوالِ المحاورين ، وكذلك ضرورة توافر رغبة النَّاس في الحوار عند التَّحدُّث إليهم ، فعلى المحاور التَّوقُّف عن الحوار عند انصراف قلوب المخاطبين .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **قال** : « حَدِّثْ النَّاسَ ما حَدَّجوك بأبصارهم [١] ، وأقْبَلَتْ عليك قلوبُهُمْ ، فإذا انصرفتْ عنك قلوبهم فلا تُحدِّثْهُمْ » قيل : « وما علامة ذلك ؟ » ، قال : « إذا التفتَ بعضُهم إلى بعضٍ ، ورأيتَهُم يتثاءبون ، فلا تُحدِّثْهُمْ » [٢] .

وعنه أيضًا قال : « إنَّ للقلوب نشاطًا وإقبالاً ، وإنَّ لها توليةً وإدبارًا ؛ فحدِّثوا النَّاسَ ما أقبلوا عليكم » [٣] .

وأوصى عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما مولاه عِكْرِمَةَ بمراعاة نشاط النَّاس وإقبالهم عند التَّحدُّث إليهم .

فعن عكرمة عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما **قال** : « حَدِّث النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ، فإنْ أَبَيْتَ فمرَّتَين ، فإنْ أكْثرتَ فثلاثَ مرَّاتٍ ، ولا تُملَّ النَّاسَ هذا القرآن ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القومَ وهم في حديثٍ مِنْ حَدِيثِهم ، فتقصُّ عليهم ، فتقطعُ عليهم حديثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ ، ولكن أنصتْ ، فإذا أمروكَ فحدِّثْهُم وهم يَشْتَهونَهُ ، وانظُرْ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فاجْتَنِبْهُ ؛ فإنِّي عَهِدْتُ رسولَ الله ﷺ وأَصحابَهُ لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتنابَ » [٤] .

---

(١) أي رموك بها ، يُريدُ حَدِّثهم ماداموا يشتهون حديثك ، فإذا أعْرَضوا عَنْكَ فاسكتْ .
(٢) أخرجه البغويُّ في شرح السُّنَّة (١/ ٣١٤) .
(٣) أخرجه الدَّارميُّ في سُننه (١/ ٦٨) .
(٤) أخرجه البخاريُّ (٦٣٣٧) .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - معلقاً على وصية ابن عباس رضي الله عنهما : « وفيه كراهيةُ التَّحدُّثِ عِنْدَ مَنْ لا يُقْبِلُ عليه ، والنَّهيُ عن قَطْعِ حديث غيره ، وأنَّهُ لا ينبغي نشر العلم عند مَنْ لا يَحْرِصُ عليه ، ويُحَدِّثُ مَنْ يَشْتَهي بسماعِهِ ؛ لأنَّه أجْدَرُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ » (١) .

وفي هذا المعنى يقول الأخ عبد الكريم العماد - حفظه الله - :

إذَا مَا رأيتَ المَرْءَ أعْطَاكَ سَمْعَهُ ... وَعَيْنَيْهِ مُهْتَمّاً وثَلَّثَ بالقَلْبِ

فَحَدِّثْهُ يَفْهَمْ ، واستمعْ لحَدِيثِهِ ... وإلاَّ فَدَعْهُ فهو في عَالَمِ الغَيْبِ

وعن أبي هلال العسكري قال : سمعتُ الحسنَ يقولُ : « كان يُقالُ : حَدِّث القومَ ما حملوا » ، قيل : « ما حملوا ؟ » قال : « ما نشطوا » (٢) .

وروى الخطيب البغدادي عن أبي خلدة قال : سمعتُ أبا العالية يقول : « حَدِّثْ القومَ ما حملوا » ، قيل : « ما حملوا ؟ » قال : « ما نشطوا » (٣) .

وبَيَّنَ الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - ضرورة توافر رغبة النَّاس عند التَّحدُّث إليهم بقوله : « حقُّ الفائدة ألاَّ تُسَاقَ إلاَّ إلى مُبْتغيها ، ولا تُعْرَضُ إلاَّ على الرَّاغب فيها ، فإنْ رأى المحدِّثُ الفُتورَ من المستمع فليسكتْ ؛ فإنَّ بعضُ الأدباءِ قال : نشاطُ القائلِ على قَدْرِ فَهْمِ المستمعِ » (٤) .

وقال أبو عباد : « ينبغي للمُحَدِّث إذا أنكرَ من السَّامع أنْ يستفهمهُ عن معنى حديثه ، فإنْ وَجَدَهُ قد أخْلَصَ له الاستماعَ ، أتمَّ له الحديثَ ، وإنْ كان لاهيًا عنه حَرَمَهُ حسْنَ الاستقبَالِ عليه، ونَفْعَ المؤانسَةِ، وعرَّفَهُ بسوءِ الاستماعِ والتَّقصيرِ

---

(١) فتح الباري (١/ ١٣٩) .
(٢) أخرجه الدَّارميُّ في سُنَنه (١/ ٦٨) .
(٣) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » (١/ ٣٣١) .
(٤) المرجع السَّابق (١/ ٣٣) .

في حقِّ المحدِّث » [١] .

قال الشاعر :

مَنْ لِي بِإِنْسانٍ إذا خاصَمْتُهُ ... وَجَهِلْتُ كانَ الحِلْمُ رَدَّ جَوابِهِ

وَإذا انصرفتُ إلَى المدامِ شربتُ مِنْ ... أَخْلاقِهِ وسكرْتُ مِنْ آدابِهِ

وَتَرَاهُ يُصْغِي لِلْحَدِيثِ بِسَمْعِهِ ... وبِقَلْبِهِ ، ولَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ ؟!

وقال البيحانيُّ - رحمه الله - : « إذا رأيتَ مِنْ جَليسِكَ الإعراضَ عنك ، أو الانشغالَ بأمرٍ آخَرَ ، فلا تُكَلِّفْهُ الاستماعَ إليك » [٢] .

وقال أحدهم :

يَسْتَوجِبُ الصَّفْعَ في الدُّنيا ثَمَانِيَةٌ ... لا لَوْمَ في واحِدٍ منهم إذَا صُفِعَا

ثم ذكر منهم

ومُتْحِفٌ بحديثٍ غَيْرَ سَامِعِهِ ... وداخلٌ في حديثِ اثنينِ مُنْدَفِعا [٣]

[٣] المبتدع :

وهذا الصِّنْف لا يُوفَّق إليه إلاَّ مَنْ آتاه الله الحكمة والبصيرَة بحالِ البدع وأهلها ؛ فلابُدَّ من التَّفقُّه في هذا المقام ، فكم من طالبِ علمٍ استعمل الحوار مع مَنْ هذا حاله فلم يحصدْ غيرَ الأحقادِ والشَّنآن .

وقد كان السَّلَف يَنْهَوْنَ عن مُناظرةِ صاحب البِدْعَة المقيم على بدعته ، ويُمسكون عن مناظرته ، وتوالَتْ كلماتُ السَّلَف تحذيرًا وتنبيهًا من محاورتهم ، وسماع كلامهم .

---

(١) « زهرة الأدب » (١/ ١٩٥) .

(٢) « إصلاح المجتمع » (ص ٢٦٠) .

(٣) المرجع السَّابق (ص ٣٦٠) .

قال أبو سليمان الصابونيُ عن أئمة السنة :

« ويُبْغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدِّين ما ليس منه ، ولا يُحبُّونهم، ولا يصحبونهم ، ولا يسمعون كلامهم ، ولا يُجالسونهم ، ولا يُجادلونهم في الدِّين ولا يُناظرونهم ، ويَرَوْنَ صون آذانهم عن سماع أباطيلهم ، التي إذا مرَّتْ بالآذان ، ومرَّتْ في القلوب ضَرَّتْ ، وجرَّتْ إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جرَّتْ ، وفيه أنزل الله عزَّ وجلَّ قوله : ﴿ وإذَا رأيت الَّذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِه ﴾ .

[الأنعام : ٦٨] » (١) .

وعن سعيد بن عامرٍ قال :« سمعتُ جدَّتي أسماءَ تُحَدِّثُ قالت : دَخَلَ رجلان على محمَّد بن سِيرِينَ من أهل الأهواء ، فقالا : يا أبا بكرٍ ، نُحَدِّثك بحديثٍ؟ قال : لا ، قالا : فنقرأ عليك آيةً من كتاب الله ؟ قال : لا ، لَتَقُومانِّ عنِّي ، أو لأَقُومنَّ » (٢) .

أسبابُ زَجْرِ السَّلَفِ عن مُناظَرَة المبْتَدِعَةِ :

اصول تلك الاسباب ثلاثة :

أوَّلاً : أنَّه لا تُرجي أوبتهم عن مذهبهم إلي حضيرة الحقِّ إذا ظهرَ لهم الحقُّ فى غيره :

عَلَّلَ السَّلَف الصَّالح نَهْيَهُمْ عن مُناظَرَة المبتدعة بأنَّه لا يُطْمَع في رجوعهم عن بدعتهم بالمناظرة ، فمناظرتهم شغلٌ لا فائدة فيه ، ومآلها إلى المراء .

قال ابو القاسم الاصبهانيُ : « قالَ عُلماءُ السَّلَف : ما وجدْنا أحدًا من

---

(١)« عقيدة السَّلَف أصحاب الحديث » (رقم ١٦١ / ص ١٠٠ - ١٠١).
(٢)أخْرَجَهُ الدَّارَميُّ (١/ ١٠٩)، واللالكائيُّ (٢٤٢).

المتكلِّمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رَجَعَ إلى قول خَصْمه ، ولا انتقَلَ عن مذهبه إلى مذهَب مُناظره ، فدلَّ أنَّهم اشتغلوا بما تركه خيرٌ من الاشتغال به» (١) .

وقال الإمام العزُّ بن عبد السلام واصفًا الحوارَ مع أهلِ البدع : « إنَّ البحثَ معهم ضائعٌ ، مُفْضٍ إلى التَّقاطُعِ والتَّدابُر من غَيْرِ فائدَة يجْنيها ، وما رأيتُ أحدًا رَجَعَ عن مذهبه إذا ظَهَرَ له الحقُّ في غيره ، بل يُصرُّ عَلَيه مع عِلْمِه بضعفِه وبُعْده » (٢) .

فإنْ قُلْت : إنَّ ابن عبَّاسٍ ﷺ ناظر الخوارج فَرَجَعَ منهم أَلْفَانِ .

فالجَوَابُ : أنَّ هناك فرقٌ بين حديث عَهْدٍ ببدعةٍ ، وبين المقيم على البدعة، فالمقيم على البدعة قد اعتقدَ البدعةَ التي انتحلها اعتقادًا رسخَ فيه ، فمثل هذا لا يُطْمَعَ في رجوعه إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ ، وأمَّا مَنْ كان حديث عَهْدٍ ببدعةٍ ، فمثل هذا يُرْجَى رجُوعُهُ ، إنْ كان الرَّجلُ فيه إنصافٌ وذكاءٌ .

وهذا الإمام أحمد يُقَرِّر أنَّ مَنِ انتَحَلَ ضلالةً ، وشَابَ عليها أنَّهُ لا يكادُ ينزع عنها ، فقال - رحمه اللهُ - : « الشَّيْخُ لا يكادُ يُسْلِمُ ، والشَّابُّ أقْربُ إلى الإسلام » (٣) .

ويُقَرِّر الإمام الشَّافعيُّ - رحمه الله - هذا ، ويقول : « ما ناظرتُ أحدًا علمتُ أنَّه مقيمٌ على بدعةٍ » (٤) .

قال البيهقيُّ مُعلقًا على كلام الإمام الشافعيِّ - رحمه الله - : « وهذا لأنَّ المقيمَ

---

(١) « الحجَّة في بيان المحجة » (١/ ١٠٠ - ١٠١) .
(٢) « قواعد الأحكام » (٢/ ١٣٥) بتصرُّف .
(٣) « المُغني » لابن قدامَةَ (٨/ ٤٧٧) .
(٤) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقيِّ (١/ ١٧٥) .

على البدعة قلَّما يرجع بالمناظَرَة عن بدعتـه ، وإنَّما كان يُناظرُ مَنْ يَرْجو رجوعَهُ إلى الحقِّ إذا بيَّنه له » (١) (٢) .

وهذا الكلام من السَّلف فـي عدم رجـوع المقـيم عن بدعتـه هو الغـالب ، ولكن قد حـصلَ شذوذٌ في ذلك ، فربَّما رَجَعَ المـقيم على البدعَةِ عن بدعـته ، والشَّاذُّ يُحفَظ ولا يُقاسُ عليه (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذا أبو الحسن الأشـعريُّ نشأ في الاعـتزال أربعين عامًا يُـناظرُ عليه ، ثمَّ رجَعَ عن ذلك ، وصرَّح بتضليلِ المعـتزلة ، وبالغَ في الرَّدِّ عليهم » (٤) .

ثانيًا: إماتَة ذكرهم حتَّي لا يُعْرَفوا بين النَّاس فتشتهر بدعهم وشُبَههم:

إذا كان المبتدعـة مقيمون في بَلَد السُّنَّة ، والحقُّ ظَاهرٌ قـد عرفه المسلمون ، وجب الإمساكُ عن مُناظرتهم منعًا لظهورهم واشتـهار شبههم ؛ فإنَّهم إنْ ظهروا واشتهروا تضرَّر بذلك المسلمون - ولاسيَّما العامَّة الجهلة - أشدَّ الضرر .

قال الإمام مسلمٌ - رحمه الله - : « الإعراضُ عن القـول المُطَّرَح (٥) أَحْرَى لإماتته ، وإخماد ذكر قائله ، وأجدرُ ألاَّ يكونَ ذلك تنبيهًا للجُهَّال عليه » (٦) .

وقال الإمام اللالكائيّ : « فـمـا جَني على المسلمين جنايـة أعظم من مُناظرة المبتـدعة ، ولم يكـنْ قهرٌ ولا ذُلٌّ أعظـم ممَّا تركهم السَّلف على تلك الجـملة ، يموتون من الغيظ كَـمَدًا ودردًا ، ولا يجدون إلى إظهارِ بدعـتهم سبيـلاً ، حتَّى

---

(١) المرجع السَّابق (١/ ١٧٥) .
(٢) انظر « أُصول الجدل والمناظرة » (ص٢٣٨-٢٣٩) .
(٣) المرجع السَّابق (ص٢٤١) .
(٤) « نقض المنطق » (ص٦٠) .
(٥) **القول المُطَّرَح** : المُبْعَد والمَرْميّ من اضطرح الشَّيءَ : أبْعَده ورماه .
(٦) مقدّمة الصحيح (ص٢٨) .

جاء المغـرورون ففتـحوا لهم إليهـا طريقًا ، وصاروا إلى هلاك الإسـلام دليلاً ، حتَّى كثُرَتْ بينهم المشاجـراتُ ، وظهرت دعوتُهم بالمناظرة ، وطرقتْ أسماعَ مَنْ لمْ يكنْ عرفها من الخاصَّة ، والعامَّـة ، حتَّى تقابلت الشُّبَهُ في الحجج ، وبلغوا من التَّدقيق في اللَّجج ، فصاروا أقرانًا [١] وأخْدانًا [٢]،وعلى المداهمة خُلاَّنًا[٣] وإخـوانًا ، بعدْ أنْ كـانوا في دينِ الله أعـداءً وأضـدادًا ، وفي الهجْـرَةِ في الله أعـوانًا، يُكَفِّرونهم في وجـوههم عِيـانًا ، ويلعنونهم جِـهارًا ، وشـتَّان مـا بينَ المنزلتين ، وهَيْهاتَ ما بينَ المقامين » [٤] .

وقال العلاَّمة بـكر أبو زيد : « نصيحتي لكُلِّ مسلمٍ سَلِمَ من فتنَـةِ الشُّبُهات في الاعتـقاد : أنَّ البدَعة إذا كـانت مقموعـةً خافتةً ، والمبـتدع إذا كان منقمـعًا مكسورَ النَّفْسِ بكَبْت بدعته ، فلا يُحرِّكُ النّفوس بتـحريك المبتدع وبدعته ؛ فإنَّها إذا حُرِّكَتْ نَـمَتْ وظَهَرَتْ ، وهذا أمرٌ جُـبِلَتْ عليـه النفوس ومنه في الخـير أنَّ النفوس تتحرَّكُ إلى الحجِّ إذا ذكرت المشاعر ، وفي الشَّرِّ إذا ذكرت النِّساء والتَّغزُّل والتَّشبيب بهنَّ ، تحرَّكت النفوسُ إلى الفواحش .

وهذا الكتمان والإعراض في باب المجـاهدَة والجهاد ، فكما يكون الحقُّ في الكلام ، فإنَّه يكون في السُّكوت والإعـراض ، فتنزل كُلّ حالةٍ منزلتـها ، والله أعلمُ » [٥] .

واعلمْ - أخي المحـاور - أنَّك لن تردَّ عليـهم بشيءٍ أشـدّ مـن السُّكوت والإمساك عن مُناظرتهم .

---

(١) أقْرَانًا : جمع قِرْن ، وهو النَّظير والمثيل .
(٢) أخْدَانًا : جمع خِدْن ، وهو الصَّديق .
(٣) خُلاَّنًا : جمع خلِيلٍ ، وهو الصَّديق .
(٤) « شرح أصول الاعتقاد » (١/ ١١٩) .
(٥) « هجر المبتدع » (ص ٥٠) .

قال الآجريُّ : « سكوتك عنهم ، وهجرتك لما تكلَّموا به أشدُّ عليهم من مناظرتك لهم ، كذا قَالَ مَنْ تَقدَّم مِنَ السَّلَفِ الصَّالح من علماءِ المسلمين» (١) .

وأمَّا إذا كان الباطلُ ظاهرًا على الحقِّ ، والبدَعِ منتشرةً رائجةً ، فلابُدَّ من الرَّدِّ والمناظَرَةِ .

قال ابن قتيبة - رحمه الله- في السكوت :

« وإنَّما يجوز أن يُؤْمَرَ بهذا قَبْلَ تفاقم الأمر ، ووقوع الشَّحناءِ ، وليس في غرائز النَّاس احتمال الإمساك عن أمرٍ في الدِّين قد انتشر هذا الانتشار ، وظهر هذا الظُّهور ، ولو أمسَكَ عقلاؤهم ما أمسك جُهلاؤهم ، ولو أمسكت الألسنةُ ما أمسكت القلوب ، وقد كان لهؤلاءِ أسوة فيمن تقدَّم من العلماء حينَ تكلَّم جهْم وأبو حنيفة في القرآن ، ولم يكن دار بين النَّاس قبل ذلك ولا عُرِفَ ، ولا كان ممَّا تكلَّمَ النَّاسُ فيه ، فلمَّا فزِعَ النَّاسُ إلى عُلَمائهم لم يقولوا : هذه بدعةٌ لم يتكلَّم النَّاسُ فيها ، ولم يتكلَّفوها ، ولكنَّهم أزالوا الشكَّ باليقين ، وجلوا الحيرة، وكشفوا الغُمَّة ، وأجمع رأيهم على أنَّه غير مخلوقٍ ، فأفتوهم بذلك ، وأدلوا بالحجج والبراهين ، وناظروا وقاسُوا ، واستنبطوا الشَّواهِدَ من كتاب الله عزَّ وجلَّ » (٢) .

ثالثًا : الاحتراز من فتنتهم :

ومن الأسباب أيضًا في زجر السَّلَف عن مُناظَرَة المبتدعة خَوْفُهم على أنفسهم وعلى غيرهم من أن تُفسِدَ قلوبَهُمُ البدعُ والشُّبهات ، ولاسيَّما العامَّة الجهلة .

---

(١) « الشَّريعة » (١/١٩٦) .

(٢) « الاختلاف في اللَّفظ والرَّد على الجَهْميَّة » (ص٦٠ - ٦١) .

قال الراغب الاصفهاني: « كُرِهَ للعامَّةِ أنْ يُجالسوا أهْلَ الأهواءِ والبِدَعِ ؛ لئلاَّ يغووهم ، فالعاميُّ إذا خلا بذوي البدع كالشَّاةِ إذا خلا بها السَّبعُ » (١) .

وقال الاوزاعيُّ - رحمه الله -: « لا تُمكِّنوا صاحب بدعةٍ من جدالٍ ، فيورثُ قلوبكم من فتنته ارتيابًا » (٢) .

وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ: « لا تُمكِّنْ أُذُنَيْكَ من صاحِبِ هوىً ، فيمرض قلبك » (٣) .

وقال مفضلُ بنُ مُهَلْهِلٍ: « لو كان صاحبُ البدعة إذا جلستَ إليه يُحدِّثُكَ ببدعته ، حَذِرْتَهُ وَفَرَرْتَ منه ، ولكنَّه يُحدِّثُكَ بأحاديث السُّنَّة في بدْءِ مجْلسه ، ثُمَّ يُدْخِلُ عليك بدعتَهُ ، فلعلَّها تلزمُ قَلبَكَ ، فمتى تخرجُ من قلبك ؟! » (٤) .

وقال بعضُ أئمة السلف: « مَنْ أصْغَى سَمْعَهُ إلى صاحب بدعةٍ - وهو يعلمُ أنَّه صاحبُ بدعةٍ - نُزِعَتْ منه العِصْمةُ ، ووُكِلَ إلى نَفْسِه » (٥) .

وقال سفيانُ الثوريُّ: « مَنْ سمع ببدعةٍ فلا يَحْكِها لجُلسائه ؛ لا يُلْقِها في قلوبهم » (٦) .

أورده الذَّهبيُّ في السِّيَر ، وعقَّبَ عليه بقوله : « أكثرُ أئمَّة السَّلَف على هذا التَّحذير ، يَرَوْنَ أنَّ القُلُوبَ ضَعِيفَةٌ ، والشُّبَهَ خطَّافَةٌ » (٧) .

وقال ابن بطة: « فاللهَ اللهَ معشرَ المسلمين ، لا يَحْملَنَّ أحدًا منكم حُسْنُ ظَنِّه

---

(١) « الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة » (ص٢٤٢) .
(٢) « البدع والنَّهيُ عنها » (رقم ١٥١/ ص١١٦) .
(٣) أخرجه ابن وضَّاح في البدع (ص٥٠) .
(٤) « الإبانة في أصول الدِّيانة » (ص٣٩٤) .
(٥) « البدع والنَّهيُ عنها » (ص٤٨) .
(٦) « شرح السُّنة » (١/ ٢٢٧) ، و« الأمر بالاتِّباع » (ص٧٤)
(٧) « سير أعلام النُّبلاءَ » (٧/ ٢٦١) .

بنفسه ، وما عَهِدَهُ من معرفته بصحَّة مذهبه علي المُخاطَرَة بدينه في مجالسَة أهل الأهواء ، فيقول : أُداخله لأُناظِرَهُ ، أو لأستَخرجَ منه مَذْهَبَهُ ؛ وإنَّهم أشدُّ فتنةً من الدَّجَّال ، وكلامهم ألصقُ من الجَرَبِ ، وأحرَقُ للقلوبِ من اللَّهَبِ ، ولقد رأيْتُ جماعةً من النَّاسِ كانوا يلعنونهم ويسبُّونهم ، فجالسوهم على سبيلِ الإنكار والرَّدِّ عليهم ، فمازالتْ بهم المباسطة ، وخفي المكر ، ودقيق الكفر حتَّى صَبُوا إليهم » (١) .

فهذه طريقة الرَّاسخ المُدْرك لصحَّة ما يعلمه ويعتقده ، أمَّا الَّذي يتلمَّسُ الحقَّ في مُناظرَة المبتدعة والضُّلاَّل ، فهذا قد جوَّزَ وجودَ الحقِّ في قولهم ، فلن يكنْ عنده علمٌ جازمٌ ، بل ولا ظنٌّ راجحٌ ، بل شكٌّ وجهالةٌ ، أمَّا مُناظرات السَّلَف لأهلِ الباطل فهي على سبيل قطع شرِّهم ، لا على سبيل تلمُّسِ الحقِّ في أقوالهم .

وإيَّاكَ - أيُّها السُّنِّيُّ - أنْ يُلْبِسَ عليك إبليسُ ، فيتدرج معك إلى سماعِ شُبَهِ الأهواءِ مع عدَمِ قبولها ، ثم تأسر قلبك شبهةٌ قَدْ لا تنفكُّ عنها (٢) .

قال البربهاريُّ: « وإذا أردْتَ الاستقامة على الحقِّ وطريق أهل السُّنَّة ، فاحذرْ الكلامَ ، وأصحاب الكلامِ ، والجدال والمراء ، والقياس ، والمناظرة في الدِّين ؛ فإنَّ استماعك منهم - وإنْ لم تقبلْ منهم - يَقْدَحُ الشَكَّ في القلبِ ، وكفى به قبولاً فتهلك ، وما كانت زَنْدَقَةٌ قَطُّ ، ولا بدعةٌ ولا هوىً ، ولا ضلالةٌ إلاَّ من الكلام ، والجدال ، والمراء ، والقياس ، وهي أبواب البدعة ، والشُّكُوكِ ، والزَّندَقَةِ » (٣) .

---

(١) « الإبانة » (٢/ ٤٧٠) .

(٢) « أصول الجَدَل والمناظرة » (ص٢٤٨ - ٢٤٩)

(٣) « شرح السُّنَّة » (رقم ١٥٣/ ص١٢٧-١٢٨)

وقال ابن الوزير : « وردتْ نُصوصٌ تقتضي العِلْمَ - أو الظَّنَّ - أنَّ الخَوْضَ في علم الكلام على وَجْه التَّقصِّي للشُّبَهَة ، والإصغاء إليها ، والتَّفتيش عن مباحث الفلاسفة والمبتدعة المُشْكِلَة في كثيرٍ من الجليَّات ، مضرَّةٌ عظيمةٌ ، مُمْرِضَةٌ لكثيرٍ من القلوب الصَّحيحة ، ودَفْعُ المضرَّة المظنونة واجبٌ عقلاً ، وقد شَهِدَتْ بذلك التَّجارِبُ مع النُّصوص ، وضلَّ بسببه اثنتان وسَبْعونَ فِرْقَةً » (١) .

واعلمْ أخي المحاور أنَّ أشدَّ أهل البدع زيغًا هُمُ الرَّافضةُ غُلاةُ الشِّيعَة ، فَفِرَّ من هذا الصِّنْف فِرارَكَ من الأسَد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم :

« والرَّافضَة لا تعتني بحفظ القرآن ، ومعرفة معانيه وتفسيره ، وطلب الأدلَّة الدَّالَّة على معانيه ، ولا تعتني - أيضًا - بحديث رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحه من سَقيمه ، والبَحْثُ عن معانيه ، ولا تعتني بآثار الصَّحابة والتَّابعين ، حتَّى تعرف مآخذهم ومسالكهم ، ويُرد ما تنازعوا فيه إلى الله والرَّسول ، بلْ عُمْدَتهم آثارٌ تُنْقَلُ عن بعضِ أهلِ البيت ، فيها صِدْقٌ وكذبٌ » (٢) .

وقال أيضًا : « وليس في شيوخ الرَّافضة إمامٌ في شيءٍ من علومِ الإسلام : لا علم الحديث ، ولا الفقه والتَّفسير ، ولا القرآن ، بل شيوخ الرَّفضة إمَّا جاهلٌ ، وإمَّا زِنْديقٌ كشيوخ أهل الكتاب » (٣) .

وقال : « ولا رَيْبَ أنَّ الرَّافضة أجْهَلُ وأقَلُّ من أن يُناظروا علماء السُّنَّة ، لكن يُنَاظر بَعْضُهم بعضًا ، كما يتناظرون - دائمًا - في المعدوم ، هل هو شيءٌ ، أو ليس بشيءٍ ؟! » (٤) .

---

(١) « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » (ص٤٥ - ٤٦) .
(٢) « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » (٢/ ٢٣٤) .
(٣) المرجع السابق (٥/ ١٦٣-١٦٤) .
(٤) المرجع السَّابق (٢/ ٨٠-٨١) .

ومن المعلوم أنَّ من شروط المناظرة الـرُّجوع والرَّدُّ إلى أُصُولٍ وكُلِّيَّاتٍ مُـتَّفق عليها ، وهذا مفقودٌ مع الرَّافضة ، فلا يُمكن أنْ تنتظمَ معهم مُناظرةٌ .

قال شيخُ الإسلام عنهم : « ثُمَّ إنَّ الواحدَ من هؤلاء إذا قـال قولاً لا يطلب دليله من الكتاب والسُّنَّة ، ولا مـا يُعارِضه ، ولا يَرُدُّونَ ما تنازَعَ فـيه المسلمون إلى الله والرَّسول ، كما أمر اللهُ به ورسولُهُ ، بَلْ قَدْ أَصَّلوا لهم ثلاثة أصولٍ :

أحدهـا : أنَّ هؤلاءِ مَعْصُومون .

والثَّانـي : أنَّ كُلَّ ما يقولونه منقولٌ عن النَّبيِّ ﷺ .

والثَّالث : أنَّ إجْماع العترة حُجَّةٌ ، وهؤلاءِ هُمُ العترة .

فصـاروا لذلك لا ينظرون في دليلٍ ولا تعليلٍ ، بل خـرجوا عن الفـقه في الدِّين كخروج الشَّعْرَة من العجين » (١) .

وقال العلامة بكرٌ أبو زيد : « واعلمْ أنَّ كُلَّ الفِرَقِ تمكن مُناظرتها إلاَّ الرَّافضة ؛ لأنَّه لابُدَّ للمتناظريـن من أصلٍ يرجعان إليه (الكـتاب والسُّنَّة) وهم لا يُؤْمنون بالسُّنَّة إلاَّ ما كانَ من طريق آل البيت ، وإنَّ القـرآن فيه تحريفٌ ونقصٌ . . ولهذا لا تُباحـثهم في الأصـول أو الفروع ، ما لم تُقـرِّرْهم على المرجع في المناظرة ، ولن يُقرّوك ، فتنقطع المناظرة من أصلها ، فاحـتفظْ بهذه الفائدة ، واحذرْ منهم التقية ، واللهُ أعلم » (٢) .

فهـؤلاءِ إن استدلُّوا بالقـرآن والسُّنَّة ، فإنَّما يـفعلون ذلك تقيـةً ، مع ما في نقولهم من الكذب ، والزِّيادة ، والتَّحريف ما هو معلومٌ لَمَنْ له خبرةٌ بهم .

قال الحافظ الذَّهَبيُّ في شأنهم : « تراهم - دائمًا - يحتـجُّونَ بالموضوعات، ويُكذِّبون بالصِّـحاح ، وإذا اسـتشـعروا أدْنـى خوفٍ لزمـوا التقـية ، وعظَّمـوا

---

(١) المرجع السَّابق (٧/ ٢٨-٢٨٧) .

(٢) « التَّعالم » (ص١١٢) تتمَّة حاشية رقم (١) من (ص١١١) .

الصَّحيحين ، وعظَّموا السُّنَّة ، ولعنوا الرَّفْضَ وأنكروا ، فَيُعْلِنون بلَعْنِ أنفسهم شيئًا ما يفعله اليهودُ ولا المجوسُ بأنفسهم » [١] .

واعلمْ أنَّ الرَّافضَةَ وغيرهم من أهلِ البدع والفلاسفة والمُتكلِّمين إنَّا احتجاجهم بالقرآن والسُّنَّة دفعًا للخَصْمِ ، لا اهتداءً به واعتمادًا عليه [٢] .

[٤] المُتعنِّت :

والمُتَعَنِّتُ قد يكون أحد رجلين : إمَّا جاهل جَهْل مُرَكَّبٍ ، أو أحْمَقَ لئيمٍ لا دواءَ له إلاَّ بالإعراض عنه ؛ فإنَّه إنْ وافقته خالفك ، وإنْ خالفته عارضك ، وإن أكرمته أهانك ، وإنْ أهنته أكرمك ، وإنْ تبسَّمْتَ له كشَّرَ لك ، وإنْ أعرضْتَ عنه اغتمَّ ، وإنْ أقبلتَ عليه اغترَّ ، وإنْ حَلُمْتَ عنه جَهِلَ عليك ، وإنْ جَهِلْتَ عليه حَلُمَ عنك .

قال ابن حبان - رحمه الله : « من علامات الحُمْق التي يجبُ على العاقلِ تفَقُّدها ممن خفي عليه أمرُهُ : سرعةُ الجوابِ ، وتَرْكُ التَثَبُّتِ ، والإفراطُ في الضَّحك ، وكَثْرَةُ الالتفات ، والوقيعةُ في الأخيار ، والاختلاطُ بالأشرارِ ، والأحمقُ إذا أعرضْتَ عنه اغتمَّ ، وإنْ أقْبَلْتَ عليه اغترَّ ، وإنْ حَلُمْتَ عنه جَهِلَ عليك ، وإنْ جَهِلْتَ عليه حَلُمَ عنك ، وإنْ أسأتَ إليه أحسن إليك ، وإنْ أَحْسَنتَ إليه أساء إليك ، وإنْ ظلمتَهُ انتصفتَ منه ، ويَظْلمك إذا أنصفتَهُ ، وما أشبه عَشرة الحَمْقَى إلاَّ بما أنشدني محمَّد بن إسحاق الواسطيُّ :

لي صَديقٌ يَرَى حُقوقي عَلَيْهِ ... نافلات ، وحَقُّهُ كانَ فَرْضا
لو قطعتُ الجبالَ طُولاً إِلَيْهِ ... ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرْضا

---

(١) « ترتيب الموضوعات » (ص١٢٤) .
(٢) « الفتاوى » (١٠/ ٣٥٥) .

لَرَأى مـا صَنَـعْتُ غَـيْـرَ كـبـيـرِ واشْتَهى أنْ أَزِيدَ في الأَرْضِ أَرْضا (١)

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله - : « وعليك ألاَّ تُفاتح بالمناظرة مَنْ تعلمـه متعنِّتًـا ؛ لأنَّ كلام المتـعنِّت ومَنْ لا يقصـد مرضاة الله فـي تعرُّف الحقِّ والحقيقـة بما تقوله ، يُورِّثُ المباهاة ، والضَّجَر ، وحُـزْنَ القلبِ ، وتعدِّي حدود الله سبحانه في الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر .

وإنْ لم تعلمْهُ كذلك حـتَّى فاتحته بالكلام ، ثمَّ عَلِمْـتَهُ عليه ، وَجَبَ عليك الإمسـاكُ عن مناظرته ، فإنْ رأيتَ نُصْـرَةَ دين الله سبـحانه في الإمـساك عنه ، زِدْتَ في الحدِّ ، وبَالَغْتَ في التحرُّزِ عنه » (٢) .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

واتْرُكْ مُـحَـاوَرَةَ اللَّئِـيمِ فـإنَّـهـا كَـالماءِ يُلْقَـى في فَمِ الصَّـحَـرَاءِ
أَتْعَـبْتَ نَفْسَكَ في احـترامِكَ قَـدْرَهُ وأَهَـانَ قَـدْرَكَ دُونَ أَيِّ عَنَـاءِ

وقال الإمام ابن حزم - رحمه الله - : « واحذرْ من مُكالمة مَنْ ليس مـذهبُهُ إلاَّ المضادَّة والمخالفة » (٣) .

قال عبد الكريم العماد :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَسْـمَعْ حَـدِيثي مُـقْبِـلاً وعَـارَضْـتَني فـي كُلِّ قَـوْلٍ أَقُـوله
لَمَلَّتْكَ نَفْـسِي ثُمَّ عَافَكَ (٤) ناظِرِي وفـاتك قَلْبي ، ثُمَّ زادَ أُفُـولُهُ (٥)

ولا يدخل في ذلك إعـراض الفُسَّـاق والمجرمين عن حـديث المحاور الآمـر

---

(١) « روضة العقلاء » (ص١١٩) .
« الكافية في الجَدَلْ » (ص٥٣٢) .
(٣) « التَّقريب لحدِّ المنطق » (ص١٩٦) .
(٤) عَافَ الشَّيْءَ : كَرِهَهُ .
(٥) أُفُولُهُ : غَيْبَتُهُ .

بالمعروف ، والنَّاهي عن المنكر ، ولا سيَّما إذا كانَ لطيفًا رفيقًا ، فالعيب ليس فيه وإنَّما فيهم .

قال الشاعر :

وَمَا عَلَى العَنْبَرِ [١] الفوَّاحِ مِنْ حَرَجٍ ... إنْ مَاتَ مِنْ شَمِّهِ الزَّبَّالُ والجَعَلُ؟!

وقال آخرُ :

عَجِبْتُ لَهُمْ قالوا: تمادَيْتَ في المُنَى [٢] ... وفي المُثُلِ العُلْيَا وفي المُرْتَقَى الصَّعْبِ
فاقْصُرْ ولا تُجْهِدْ يَرَاعَك [٣] إنَّما ... سَتَبْذُرُ حَبّاً في ثَرَى ليس بالخَصْبِ
فَقُلْتُ لَهُمْ: مَهْلاً فما اليأسُ شيمَتي [٤] ... سَأَبْذُرُ حَبِّي والثِّمارُ مِنَ الرَّبِّ
إذَا أنا أَبْلَغْتُ الرِّسالةَ جاهِدًا ... ولَمْ أَجِدْ السَّمْعَ المُجيبَ فما ذَنْبِي؟!

[٥] الغضبان :

ويجْمُلُ بك - أخي المحاور - أن تسكتَ إذا غَضِبَ مَنْ تُحاورُ ، حتَّى تهدأَ الثَّائرة ، وتبرد المشاعرُ ، وتسكن اضطراباتُ النَّفس ، ويتأكَّد ذلك منك إذا اشتدَّ به الغضبُ ، فأخذَ منه كُلَّ مأخذٍ ، فمتى واجهته - وهو بهذه الحال - كنتَ كعاقلٍ واجهَ مجنونًا ! .

قال الإمام ابنُ الجوزيِ: « متى رأيتَ صاحبَكَ قدْ غَضِبَ ، وأخذَ يتكلَّمُ بما لا يصلح ، فلا ينبغي أنْ تعقدَ على ما يقوله خِنْصَرًا [٥] (أي لا تعتدَّ به ، ولا تلتفتُ إليه) ولا أنْ تُؤاخذهُ به ؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكرانِ لا يدري ما يجري ،

---

(١) العَنْبَر : مَادَّة صَلْبَة ، تنبعث منها رائحةٌ زكيَّةٌ إذا أُحْرِقَتْ .
(٢) المُنَى : الأحْلام ، واحدها مُنْيَةٌ .
(٣) اليَرَاع : جمع يَرَاعَة ، وهي القلَم .
(٤) الشِّيمَةُ : الخُلُق والطَّبيعة ، جمعها شِيَمٌ .
(٥) الخِنْصَر : أصْغَر أصابع اليد .

بل اصبر ولو فترةً ، ولا تُعَوِّلْ عليها ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قدْ غَلبهُ ، والطَّبْعَ قد هاجَ ، والعقل قد استترَ ، ومتى أخذْتَ في نفسك عليه ، أو أجبته بمقتضى فعله ، كنتَ كعاقلٍ واجه مجنونًا ، أو مُفيق عاتَبَ مُغْمَىً عليه ، فالذَّنْب لك ، بل انظرْ إليه بعينِ الرَّحْمَة ، وتلمَّحْ تصريف القَدَرِ لَهُ ، وتفرَّجْ في لعبِ الطَّبْعِ به ، واعلمْ أنَّه إذا انتبه نَدِمَ على ما جَرَى ، وعرف لك فَضْلَ الصَّبر ، وأقلُّ الأقسام أن تسلمَهُ فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به .

وهذه الحالة ينبغي أن يتلمَّحها الوَلَدُ عند غضب الوالد ، والزَّوْجَةُ عند غضَبِ الزَّوج ، فتتركه يشفى بما يقول ، ولا تعوِّل على ذلك ، فسيعود نادمًا معتذرًا ، ومتى قُوبِلَ على حالته ومقالته ، صارتِ العداوَةُ متمكِّنَةً ، وجازَى في الإفاقة على ما فُعِلَ في حقِّهِ وقتَ السكْر .

وأكْثَرُ النَّاس على غير هذا الطريق ، متَى رأَوْا غضبانًا قابلوه بما يقول ويعمل، وهذا على غير مقتضى الحكمة ، بلْ الحكمة ما ذكرتُ ، وما يعقلها إلاَّ العالمون » (١) .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

دَعْ الغَضْبانَ يُخرِجْ ما لَدَيْهِ ... وأَحْسَنْتَ الصَّنيعَ إذا سكتَّا

وإنْ جَادلْتَهُ والنَّارُ فيه ... فَأَنتَ تصبُّ في النيرانِ زَيْتا

[٦] الثَّقيل :

إذا رأيتَ - أخي الحبيب - محاوركَ لا يُحْسِنُ الحوارَ فيفيدك ،ولا الاستماعَ فيستفيد منك ، لا يأنفُ عن مواجهتك بما تكره ، هائمًا على وجهه ، لا ينتهي له صياحٌ ، ولا تنحبس له شِرَّةٌ (٢) ، فإيَّاكَ وإيَّاهُ .

---

(١) « صيد الخاطر » (ص٢٢٥- ٢٢٦) .

(٢) **الشِّرَّة** : الشَّرُّ والحِدَّة عِنْدَ الغَضَبِ .

قال ابن القيم الجوزيّ : « ومنهم مَنْ مخالطتُهُ حُمَّى الرُّوح ، وهو الثَّقيلُ البغيضُ العقل الذي لا يُحْسِنُ أن يتكلَّمَ فيفيدك ، ولا يُحْسِنُ أنْ يُنْصِتَ فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بلْ إنْ تكلَّمَ فكلامُهُ كالعصا تنزلُ على قلوبِ السَّامعين ، مع إعجابِهِ بكلامِهِ وفرحه به ، فهو يُحَدِّثُ من فيه كُلَّما تحدَّثَ ، ويظنُّ أنَّه مِسْكٌ يطيب به المجلس ، وإنْ سكَتَ فأثقلُ من نِصْفِ الرَّحى[١] العظيمة التي لا يُطاقُ حملُها ، ولا جَرُّها على الأرضِ »[٢] .

قال الشاعر :

لَمَّا تَبَدَّلَتْ المجالسُ أَوْجُهًا ... غَيْرَ الَّذينَ عَهِدْتُ مِنْ عُلَمَائِها

وَرَأَيْتُها مَحْفوفةً بسوى الأُلى ... كَانوا وُلاةَ صُدُورِها وفنَائِها

أَنْشَدْتُ بَيْتًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا ... والعَيْنُ قَدْ شَرِقَتْ بجاري مائِها

أَمَّا الخِيامُ فَإِنَّها كَخِيامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ[٣] غَيْرَ نسائها[٤]

[٧] السَّفيه :

ليس من الحكمة أن تُحاور السُّفهاءَ ؛ لأنَّ السَّفيه لا رُشْدَ في أقواله وأفعاله، فكيفَ يُرْجَى تَلَمُّسُ الحقِّ في محاورته ومُناظَرته ؟! .

ولقد أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بالإعراضِ عن السُّفهاءِ فقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قال معاوية رضي الله عنه : «فأمَّا السَّفيهُ فلا يُؤمن على الشَّرِّ ولا يُرْجَى للنَّصيحَةِ »[٥] .

---

(١) **الرَّحَى** : حَجَرُ الطَّاحون ، جمعها أرحاء .

(٢) « بدائع الفوائد » لابن القيِّم (٢/ ٢٧٤-٢٧٥) .

(٣) **الحيّ** : القبيلة .

(٤) « صفحة من صبر العلماء على الشَّدائد والتَّحصي » (ص٢٦٥- ٢٦٦) .

(٥) « الفنون » (١/ ٧٦) .

وقال **الباجي** : « ولا يُناظر من عادته التَّسفُّهُ في الكلام ، ولا مَنْ عادتُهُ التَّفظيع ؛ فإنَّه لا يستفيد بكلامِهِ فائدةً » (١) .

قال صالح بن عبد القدُّوس :

وَإذا حَمَلْتَ إِلَى سَفيهٍ حِكْمَةً ... فَلَقَدْ حَمَلْتَ بِضَاعَةً لا تُنْفَقُ (٢)

وقال عبد الكريم العماد :

يُؤذيني السَّفيهُ ، مَتَى أَرَاهُ ... لَزِمْتُ الصَّمتَ ، لا أُبْدِي كلامًا

فَلَيْسَ سِوَى الإجابةِ عَنْ سُؤَالٍ ... وَغَيْرُ الرَّدِّ أنْ أُلْقِيَ السَّلاما

وقال آخر :

لا تُرْجَعَنَّ إلى السَّفيْهِ خطَابَهُ ... إلاَّ جَوَابَ تَحيَّةٍ حيَّاكها

فَمَتَى تُحَرِّكْ جِيفَةً تَزْدَادُ نَتنًا ، إنْ أَردْتَ حراكها (٣)

وقال ابنُ المقفع : « واعلمْ أنَّكَ سَتُبْتَلَى من أقوام بِسَفَهٍ سيُطْلِعُ منك حِقْدًا ؛ فإنْ عارضته ، أو كافأته بالسَّفَه ، فكأنَّك رَضِيتَ ما أتى به ، فأحببتَ أنْ تحتذيَ على مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذمومًا ، فحقِّقْ ذمَّكَ إيَّاهُ بتركِ معارضته ، فأمَّا أنْ تَذُمَّه وتمتثلَهُ (٤) ، فليس في ذلك سَدَادٌ » (٥) .

قال الشاعر :

وَقُلْ لِبَني سَعْدٍ : فما لي وما لكم ... تَرَقُّونَ مِنِّي ما استطعتمْ وأُعْتِقُ؟!

أَغَرَّكُمْ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ ... بَصيرٌ وَأَنِّي بالفواحِشِ أَخْرَقُ (٦) ؟!

---

(١) « المنهاج بترتيب الحجاج » (ص١٠) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/١١١) .

(٣) « الحلم » لابن أبي الدنيا (ص٣٢) .

(٤) تمتثله : تحتذيه وتسلك طريقه .

(٥) « الأدب الصَّغير والأدب الكبير » (ص١٥٥) .

(٦) أَخْرَق : جاهل .

وَرِنْ تَكُ قَدْ فاحشْتَني فقهرتني ... هنيئًا مريئًا أنتَ بالفُحْشِ أحْذَقُ[١] [٢]

وإذا ما أرادَ السَّفيه أنْ يبدأ بالسَّفَه ، فما أجملَ الإعراضَ عنه ، وتجاهُلَ حِوارِه ! ، وصَدَقَ الإمامُ الشَّافعيُّ القائل :

أعْرِضْ عَنِ الجَاهلِ السَّفيهِ ... فكُلُّ مَا قالَ فَهُوَ فيهِ

مَا ضَرَّ نَهْرَ الفُرَاتِ يَوْمًا ... لو خَاضَ بَعْضُ الكِلابِ فِيهِ [٣]

انظُرْ مَنْ تُحاور :

وأخيرًا - أخي الحبيب - انظرْ مَنْ تُحاور ، فقد كان السَّلَف يَلْزَمون الانتقاء والاختيار لِمَنْ يُحاورونهم ، ويعتقدون أنَّ وضعَ الحوار عند غير أهله كوضع اللُّؤلُؤ والزَّبَرْجَدِ للخنازير .

قال الأعمش : « لا تنثروا اللُّؤلؤ تحتَ أظْلافِ [٤] الخنازير » [٥] .

وقال شعبة : « رآني الأعمشُ وأنا أُحَدِّثُ قومًا ، فقال : وَيْحَكَ يا شعبةُ ، تُعَلِّقُ اللُّؤلؤَ أعناقَ الخنازير ! » [٦] .

وقال الإمامُ مالك : « طارحُ العِلْمِ عندَ غير أهلِه كطارحِ الزَّبرجَدِ للخنازير » [٧] .

وروى الخطيبُ البغداديُّ عن مسروقٍ قال : «لا تنثرْ بَزَّكَ [٨] إلاَّ عند مَنْ يَبْغِيه» [٩] .

---

(١) أحْذَق : ماهر .

(٢) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٥٤) .

(٣) ديوان الشَّافعيِّ (ص٩٠) تحقيق الزّغبيِّ .

(٤) أظْلاف : الأظلاف للخنازير بمنزلة الخُفِّ للإبل .

(٥) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٢٨) (١/ ٣٢٧) .

(٦) « جامع بيان العلم » (١/ ١٠٨) .

(٧) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٣٧) (١/ ٣٢٩) .

(٨) البَزّ : الثِّياب ، والمعنى : لا تُحاورْ مَنْ لا يَستَحِقُّ حِوارَكَ .

(٩) المرجع السَّابق رقم (٧٣٧) (١/ ٣٢٧) .

ورحم الله الإمام الشافعيَّ القائل :

أَأَنْثُرُ دُرّاً بَيْنَ سَارِحَةِ (١) البَهَمْ (٢) ... وَأَنْظِمُ مَنْثُوراً لراعيةِ الغَنَمْ ؟!
لَعَمْرِي لَئِنْ ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدَةٍ ... فَلَسْتُ مُضَيِّعًا فيهم غُرَرَ الكَلِمْ
لَئِنْ سَهَّلَ اللهُ العَزِيزُ بِلُطْفِهِ ... وصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفِيدًا واسْتَفَدْتُ وَدَادَهُمْ ... وَإلاَّ فَمَكْنُونٌ (٣) لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
وَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتوجِبِينَ (٤) فَقَدْ ظَلَمْ (٥)

وقال كثيرُ بنُ مُرَّةَ الحَضْرَمِيُّ : « إنَّ عليك في عِلْمِكَ حقّاً ، كما أنَّ عليك في مالك حقّاً ، لا تُحَدِّثْ العِلْمَ غَيْرَ أهله فَتَجْهَلَ ، ولا تَمنع العِلْمَ أهْلَهُ فتأثمَ ، ولا تُحَدِّثْ بالحكمةِ عند السُّفهاءِ فيُكَذِّبوك ، ولا تُحَدِّثْ بالباطلِ عند الحكماءِ فيمقتوكَ (٦) » (٧) .

وقال عبد الكريم العماد :

كُلامُكَ لا تَقْلُهُ لِغَيْرِ أَهْلٍ ... وَزَادُكَ أَعْطِهِ مَنْ يَشْتَهِيهِ
فَمَنْ يَبْنِ البِنَاءَ بِغَيْرِ عَقْلٍ ... عَلَى البَحْرِ اللّجاجِ يَغُوصُ فِيهِ

وعن رُؤْبَةَ بن الحجاج قال : « أتيتُ النسابة البكريَّ ، فقال لي : مَنْ أنتَ ؟ قُلْتُ : رؤبةُ بن الحجَّاج . قال : قصرت وعرفت ، فما جاء بك ؟ . قلتُ : طَلَبُ العِلْمِ . قال : لعلَّكَ مِنْ قومٍ أنا بين أظْهُرِهِمْ ، إنْ سكتُّ لم يسألوني ،

---

(١) السَّارِحَة : الماشية التي تسرح ، أي تذْهَبُ أوَّل النَّهارِ إلى المَرعى ، جمعها سَوَارِح .
(٢) البَهَم والبَهْم : اسم جمع بَهمة ، وهي أولاد الغَنَمِ .
(٣) مكنون : محفوظ .
(٤) المستوجبين : المستحقِّينَ الجديرين بتلقِّي العِلْمِ .
(٥) ديوان الشَّافعيِّ (ص ١٠٦) تحقيق البقاعي .
(٦) المَقْتُ : أشَدُّ البُغْض .
(٧) « جامع بيان العلم » (١/ ١١٠) .

وإنْ تكلَّمتُ لم يَعُوا عنِّي ! . قُلتُ : أرجو ألاَّ أكونَ منهم »[١] .

وروى الخطيب البغداديُ عن مُطَرِّف قال : « لا تُطْعِمْ طعامكَ مَنْ لا يَشْتَهيه »[٢] أي لا تُـقْـبِلْ علَى مَـنْ لا يُقْبِلُ عليك بوجـهـه ، ولا تُحَدِّثْ بالحـديث مَنْ لا يُريدُهُ .

وأخيرًا - أخي الحبيب - كُنْ طبيبًا رفيقًا ، يَضَعُ دواءَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ ينفعُ .

ولقد أجادَ من قال - وأحسَنَ - :

قالوا: نَرَاكَ طويلَ الصَّمْتِ، قُلْتُ لهم ... ما طُولُ صَمْتِي عَنْ عِيٍّ[٣] ولا خَرَسِ
لَكنَّهُ أَحْـمَـدُ الأشْـيَـاءِ عَـاقِـبَـةً ... عِنْـدِي وأَيْسَـرُهُ مِـنْ مَنْطِقٍ شَكِسِ
أَأَنْشُـرُ البَـزَّ فِـيـمَـنْ لَيْسَ يَعْـرِفُـهُ؟! ... أَمْ أَنْثُرُ الدُّرَّ بَيْنَ العُمْيِ في الغَلَسِ[٤]؟![٥]

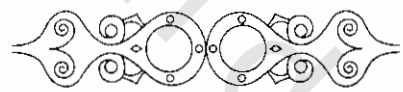

(١) المرجع السَّابق (١/ ١٠٩) .
(٢) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٣١) (١/ ٣٢٨)
(٣) **العِيُّ** : الجَهْلُ .
(٤) **الغَلَس** : ظلام آخر اللَّيل .
(٥) « جامع بيان العلم » (١/ ١١٠) .

المعارضة

أي أخي، إنَّ من المحاورينَ مَنْ هو محبٌّ للمعارضة، كَلِفٌ [١] بالمخالفة، لا يُوافق مُحاوره على أمرٍ ، ولا يُسَلِّمُ له بشيءٍ ، فإيَّاكَ وإيَّاه .

قال الإمام ابن حَزْم - رحمه الله - : « إيَّاكَ ومُخالفةَ الجليس ، ومُعارضة أهلِ زمانك فيما لا يَضُرُّك في دُنياك ، ولا في آخرتك وإنْ قَلَّ ؛ فإنَّكَ تستفيد بذلك الأذى والمُنافرة والعداوة ، وربَّما أدَّى ذلك إلى المطالبة والضَّررِ العظيمِ دُونَ منفعَةٍ أصلاً » [٢] .

وقال أبو بكرٍ الطرطوشيُّ : « إذا رأيتَ إنسانًا جُبِلَ على الخلاف ، إنْ قُلْتَ : لا ، قال : نَعَمْ ، وإنْ قُلْتَ : نَعَمْ ، قال : لا ، فألحقْهُ بعالم الحمير ؛ فإنَّ دَأْبَ الحمار إنْ أَدْنَيْتَهُ بَعُدَ ، وإنْ أَبْعَدْتَهُ قَرُبَ، وأنتَ تستمتع بالحمارِ، ولا تَسُبُّهُ، ولا تُفارقْهُ » [٣] .

وقال الإمام الخطابيُّ - رحمه الله - مُحذِّرًا من هذا الصِّنف : « وقال بعضهم : إنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يُولَعُ بالخلافِ أبدًا ، حتَّى إنَّه يرى أنَّ أفضَلَ الأمر ألاَّ يُوافق أحدًا، ولا يُجامعَهُ عَلَى رأيٍ ، ولا يُوافقَهُ على محبَّةٍ ، ومَنْ كانت هذه عادته ؛ فإنَّه لا يُبْصر الحَقَّ ، ولا ينصره، ولا يعتقده دينًا ومذهبًا، إنَّما يتعصَّب لرأيه ، فينتقم لنفسه ، ويسْعَى في مرضاتها ، حتَّى إنَّك لو رُمْتُ أنْ تترضَّاه ، وتوخَّيتَ أنْ تُوافقَهُ على الرأي الذي يدعوكَ إليه ، تعمَّد لخلافك فيه ، ولم يرضَ به حتَّى ينتقل إلى نقيضِ قوله الأوَّل ، فإنْ عُدْنَ إلى وفاقِهِ عادَ فيه إلى خلافك ، فَمَنْ

---

(١) كَلِفَ : مُولَع .

(٢) « الأخلاق والسِّيَر » (ص٦١) .

(٣) « سراج الملوك » (ص٢٥٩) .

كان بهذه الحال فعليك بمباعدته ، والنِّفار عن قُرْبِه ؛ فإنَّ رضاه غايةٌ لا تُدْرَكُ ، ومَدَى شَأْوِه [١] لا يُلْحَقُ » [٢] .

ثُمَّ أوردَ - رحمه الله - أمثلةً لذلكَ ، فقال : أخبرني ابن التعيانيِّ قال : أخبرنا الزَّجَّاج قال : « كُنَّا عند المبَرِّد - أي العبَّاس محمَّد - فوقف عليه رجلٌ ، فقال : أسألك عن مسألة في النَّحْوِ ؟ قال : لا ، فقال : أخْطَأْتَ ، فقال : يا هذا ، كيف أكونُ مُخْطئًا أو مُصيبًا ، ولم أُجِبْكَ عن المسألة بَعْدُ ؟! .

فَأَقْبَلَ عليه أصحابُهُ يُعَنِّفونَهُ ، فقال لهم : خَلُّوا سبيلَهُ ، ولا تعرضوا له ، أنا أُخْبركم بقصَّته : هذا رجلٌ يُحبُّ الخلافَ ، وقد خرجَ من بيته ، وقصدني على أنْ يُخالفَني في كُلِّ شيءٍ أقولُهُ ، ويُخَطِّئَني فيه ، فَسَبَقَ لسانُهُ بما كان في ضميره » [٣] .

ويدخل في ذلك الجدال المذموم ، فالجدال قد يكون بحقٍّ ، وقد يكون بباطلٍ ؛ ولهذا قَسَّمَ العلماءُ الجدَلَ إلى : محمودٍ ، ومذمومٍ .

وقال **الخطيب البغداديُّ** - رحمه الله - : « الجِدَالُ المذمومُ وجهان :

أحدهما : الجدال بغير حُجَّة .

والثَّاني : الجدال بالشَّغَبِ [٤] والتَّمويه نُصْرَةً للباطلِ بعدَ ظهور الحقِّ وبيانه ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر : ٥] .

وأمَّا جِدَالُ المُحِقِّينَ فمن النَّصيحة في الدين ، ألاَ ترَى إلى قوم نُوحٍ عليه السلام حيث قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : ٣٢] ، وجوابه

---

(١) **الشَّأْوُ** : الغاية والهَدَف .

(٢) « العزلة » (ص١٦٦) .

(٣) المرجع السَّابق (ص١٦٦- ١٦٧) .

(٤) **الشغب** : تهييج الشَّرِّ .

لهم : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ [هود : ٣٤] .

وعلى هذا جرت سنة رسول الله ﷺ » .

إلى أن قال - رحمه الله - : [« وقد تحاجَّ المهاجرون والأنصار ، وحاجَّ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الخوارجَ بأمرٍ من عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وما أنكرَ أحدٌ من الصَّحابة قطُّ ، الجدال في طلَبِ الحقِّ ، وأمَّا التَّابعون ومَنْ بعدهم فقد توسَّعوا في ذلك ، وثبت أنَّ الجدالَ المحمودَ هو طلَبُ الحقِّ ونصره ، وإظهار الباطل وبيان فساده ، وأنَّ الخصَّام بالباطلِ هو اللداد الذي قال عنه النَّبيُّ ﷺ : «أبْغضُ الرِّجال إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ »[(١)]] [(٢)] .

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله - : « من الجدال ما يكون محمودًا مرضيًا ، ومنه ما يكون مذمومًا محرَّمًا ، فالمذموم منه ما يكون لدفع الحقِّ ، أو تحقيق العناد ، أو ليلبس الحقَّ بالباطل ، أو لما لا يُطْلَب به تَعَرُّف ولا تَقَرُّب ، أو للمماراة وطلب الجاه والتَّقَدُّم ، إلى غير ذلك من الوجوه المنْهيِّ عنها ، وهي التي نصَّ اللهُ سبحانه وتعالى على تحريمها ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قوم خصمون (٥٨) ﴾ [الزُّخرف : ٥٨] .

أمَّا الجدالُ المحمودُ المدعوُّ إليه فهو الذي يُحقِّقُ الحقَّ، ويكشفُ عن الباطلِ، ويهدفُ إلى الرُّشْدِ مع مَنْ يُرْجَى رجوعُهُ عن الباطلِ إلى الحقِّ، وفيه قال سبحانه وتعالى : ﴿ ادعُ إلىٰ سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النَّحل : ١٢٥] » [(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٧) و (٤٥٢٣) و (٧١٨٨) ، ومسلمٌ (٢٦٦٨) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (١/ ٢٣٣-٢٣٥) .

(٣) « الكافية في الجَدَل » (ص٢٢-٢٣) .

فضول الحوار

حريٌّ بك - أخي المحاور - أن تُمسكَ عن فُضُول الحوار ؛ حتَّى لا يختَلط موضع الفائدة بغيرها ؛ فإنَّ ذلك مَضَلَّةٌ للفَهْمِ والسَّامع معًا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لا خير في كثير من نَّجْوَاهُمْ إلاَّ من أمر بصدقة أو معْرُوف أَوْ إصْلاح بين النَّاس ومن يفعلْ ذلكَ ابْتغاءَ مرْضَات اللَّه فسوفَ نُؤْتيه أجْرًا عظيمًا (١١٤) ﴾ [النِّساء : ١١٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ من أحبِّكُمْ إليَّ ، وأَقْرَبكُمْ منِّي في الآخرة أَحْسَنَكُمْ أخْلاقًا ، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرة أَسْوَؤكُمْ أخْلاقًا : الثَّرثارون ، المُتَفَيْهِقُونَ ، المتشدِّقون » (١) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « لا خَيْرَ في فُضُولِ الكلامِ » (٢) .

وأَوصَى ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما رجلاً ، فقال : « لا تتكلَّمْ بما لا يَعْنيكَ ؛ فإنَّ ذلك فَضْلٌ ، ولستُ آمنُ عليك من الوِزْرِ ، ودَعْ الكلامَ في كثيرٍ ممَّا يعنيك حتَّى تجدَ له موضعًا ؛ فربَّ مُتكلِّمٍ في غير موضعه قد عنت » (٣) .

وقال عطاءُ بن أبي رباحٍ : « كانوا يكرهونَ فُضُولَ الكلامِ » .

وقال : « بتركِ الفُضُولِ تكمُلُ العُقُولُ » .

وقال : « الصَّمْتُ صيانةُ اللِّسان ، وستر العِيِّ » (٤) .

---

(١) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص ١٠٧) .
(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .
(٣) « العزلة » (ص ١٣٤) .
(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله - :

لا خَيْرَ في حَشْوِ الكلا ... مِ ، إذَا اهْتَدَيْتَ إلَى عُيُونِهْ (١)
والصَّمْتُ أجْمَلُ بالفَتَى ... مِنْ مَنْطِقٍ في غَيْرِ حِينِهْ (٢)

وقال الإمام النوويُّ - رحمه الله - : « اعلمْ أنَّه ينبغي لكُلِّ مُكلَّفٍ أنْ يحفَظَ لسانَهُ عن جميع الكلام إلاَّ كلامًا ظهرت فيه المصلحةُ ، ومتَى استوى الكلامُ المباحُ وتركُهُ في المصلحة ، فالسُّنَّة الإمساك عنه ؛ لأنَّه قد يجرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ أو مكروهٍ ، وذلك كثيرٌ في العادةِ ، والسَّلامة لا يَعْدِلُها شيءٌ » (٣) .

وقال الخطيبُ البغداديُّ في « آداب المجادل » : « ويكون كلامُهُ يسيرًا جامعًا ؛ فإنَّ التَّحفُّظَ من الزَّلَلِ مع الإقلال دونَ الإكثار ، وفي الإكثارِ - أيضًا - ما يُخفي الفائدَةَ ، ويُضيع المقصود ، ويُورِّث الحاضرين المَلَلَ » (٤) .

وقال إسماعيل الكاتب :

خَيْرُ الكلامِ قَليلُ ... عَلَى كثيرٍ دَليلُ
والعِيُّ مَعْنَىً قَصِيرٌ ... يَحْوِيهِ لَفْظٌ طويلُ (٥)

وقال الماورديُّ - رحمه الله - : « واعلمْ أنَّ للكلامِ شروطًا لا يسلمُ المتكلِّمُ من الزَّلَلِ إلاَّ بها ، ولا يَعْرَى (٦) من النَّقْصِ إلاَّ بَعْدَ أن يستوفيها ، وهي أربعةٌ :

فالشَّرطُ الأوَّلُ : أن يكونَ الكلامُ لداعٍ يدعو إليه ، إمَّا في اجتلابِ نَفْعٍ ، أو دَفْعِ ضَرَرٍ .

---

(١) عُيون الكلام : أفضله وأحسنه .
(٢) ديوان الشَّافعيِّ (ص ١١٥) تحقيق البقاعيّ .
(٣) « رياض الصَّالحين (ص ٣٩١) .
(٤) « الفقيه والمتفقّه (٢/ ٣٨) .
(٥) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .
(٦) يَعْرَى : يخلو .

والشَّرْطُ الثَّانـي :أنْ يأتي به في موضعه ، ويتوخَّى به إصابة فرصته .

والشَّرْطُ الثَّالث :أن يقتصر منه على قَدْرِ حاجَتِه .

والشَّرط الرَّابـع :أنْ يتخيَّرَ اللَّفظ الذي يتكلَّمُ به » (١) .

وقال القاسمي : « إيَّاكَ وفُضُـولَ الكلامِ ؛ فإنَّه يُظْهِرُ من عُيُـوبك ما بَطَنَ ، ويُحَرِّكُ من عَـدوِّك ما سكَنَ ، فكلامُ الإنسـان بيانُ فَـضْلِه ، وتُرْجُمـانُ عَقْلِه ؛ فاقصرْهُ على الجميل ، واقتصرْ منه على القليل » (٢) .

(١) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٧٥) .

(٢) « جوامع الأدب والأخلاق » (ص٦) .